التَّفَكُّر

مِنَ المشاهَدة إلى الشُهُود

دراسَة نفْسِيَّة إسْلاميَّة

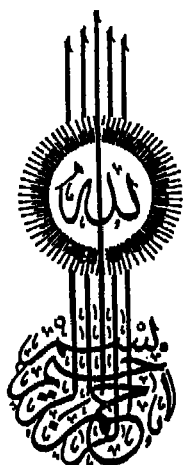
د. مالك بدري

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

(١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)

د. مالك بدري

- ولد في السودان في ٨ شوال ١٣٥٠هـ الموافق ١٦ نوفمبر ١٩٣٢م.
- تحصل على «ليسانس» الآداب من الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
- تحصل على «دبلوم» في التربية ثم على «الماجستير» من الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.
- نال درجة «الدكتوراه» من جامعة ليستر بانجلترا سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.
- تحصل على شهادة في العلاج النفسي من جامعة لندن سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧.
- نال زمالة الجمعية البريطانية لعلماء النفس وكذلك زمالة جمعية أبحاث وعلاج السلوك بجامعة تمبل بالولايات المتحدة الأمريكية.
- دَرَّس بالجامعة الأمريكية ببيروت أستاذًا مساعدًا سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، وعمل أستاذًا مشاركًا بالجامعة الأردنية سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م ثم أصبح أستاذًا لمادة علم النفس كما عين مديرًا للصحة النفسية بجامعة الرياض من ١٣٩١ـ١٣٩٧هـ/ ١٩٧١ـ١٩٧٧م.
- عُيِّن عميدًا لكلية التربية وأستاذًا لعلم النفس بجامعة الخرطوم من سنة ١٣٩٧ـ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٧ـ١٩٨٠م.
- دَرَّس بجامعة الإمام محمد بن سعود أستاذًا لعلم النفس وأصبح كبير علماء العلاج النفسي بمستشفى الجامعة.
- يعمل الآن استاذًا لعلم النفس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.
- تستعين به المنظمات العالمية في مجالات علم النفس التربوي، وعلم النفس العلاجي. وقد انتخب عضوا في لجنة العلاج الطبي التقليدي بمنظمة الصحة العالمية في الفترة ١٤٠٠ـ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٠ـ١٩٨٤م.
- شارك في تحرير العديد من المجلات العلمية العربية والإنجليزية ونشرت له الدوريات العلمية المتخصصة العديد من الأبحاث حول علم النفس، والعلوم المرتبطة به، وبالأخص حول المنظور الإسلامي لعلم النفس.
- أصدر عددًا من الكتب من أهمها في مجالات تخصصه:
  - **علم النفس التربوي**
  - **علم النفس من منظور إسلامي**
  - Islam and Alcoholism
  - Muslim Psychologists in the Lizard's Hole



الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

وقل رب زدني علماً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

(العلق: ١ ـ ٥)

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾

(النحل: ٧٨)

« إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة »

الحسن البصري

التَّفَكُّر

من المشاهدة إلى الشهود

دراسة نفسية إسلامية

الطبعة الأولى (دار الوفاء: القاهرة)
١٤١١هـ / ١٩٩١م

الطبعة الثانية (المعهد: عمان، الأردن)
١٤١٣هـ / ١٩٩٢م

الطبعة الثالثة (منقحة)
١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

الطبعة الرابعة
(١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



نشر وتوزيع:
الدار العالمية للكتاب الإسلامي
نشر وتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي بسبعين لغة
الإدارة العامة: ص ب. ٥٥١٩٥ ـ الرياض ١١٥٣٤
هاتف ٤٦٥٠٨١٨ ـ ٤٦٤٧٢١٣ ـ فاكس ٤٦٣٣٤٨٩
المكتبات: الرياض ٤٦٢٩٣٤٧ ـ ١ / جدة ٦٨٧٣٧٥٢ ـ ٢ / الخبر ٨٩٤٥٨٢١ ـ ٣

INTERNATIONAL ISLAMIC PUBLISHING HOUSE
I. I. P. H.
Publisher and Distributer of Islamic Books and Tapes in 70 Languages
HEAD OFFICE· P.O.Box 55195 - Riyadh 11534 - Saudi Arabia
Tel: (966-1) 4650818-4647213 - Fax: 4633489
BOOK SHOPS. Riyadh 1-4629347/Jeddah 2-6873752/Khobar 3-8945821

سلسلة أبحاث علمية (٣)
(إسلامية علم النفس)

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Badrī, Mālik: 1932 (1350)–
al Tafakkur min al mushāhadah ilá al shuhūd: dirāsah nafsīyah Islāmīyah/Mālik Badrī.
p. 120 cm. 15×22½ – (*Abḥāth 'ilmīyah*; 3)
Includes bibliographical references and indexes.
ISBN 1-56564-007-1
1. Intellect–Religious aspects–Islam. 2. Islam and reason.
3. Islam–Psychology.
I. Title. II. Series:
BP175.B34 1191 < Orien Arab > 91-38924
CIP

المحتويات

تصدير

يسرّ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ان يقدم إلى قرائه ومحبيه، هذه الرسالة اللطيفة في حجمها، المتنوعة في فوائدها، الغزيرة في معانيها، في هذا الموضوع المهم من الموضوعات النفسية، وذلك بعد أن توفر على دراسته عالم مشهود له في هذا الباب، عانى هذا النوع من الدراسات منذ فترة طويلة، وكان من روّاد المدرسة التي عملت على تقديم علم نفس من منظور إسلامي، وتناول في كثير من دراساته وأبحاثه هذه القضية، حتى ذاع صيتها وتطلّع إلى المشاركة فيها العديد من العلماء والباحثين؛ ذلك هو الأستاذ الدكتور مالك بدري.

ولقد حظيت هذه الرسالة بتقديم الأستاذ الكبير الدكتور يوسف القرضاوي، فجمعت بذلك بين جودة العرض وحسن التقديم.

نسأل الله العليّ القدير أن ينفع بها الدارسين والباحثين والمهتمين في هذا الموضوع، وأن يثيب كاتبها ومقدّمها والمعهد الذي تابع خطوات إنجازها، خير الثواب وأحسن الجزاء، إنّه سميعٌ مجيب.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن ـــ فيرجينيا
الولايات المتحدة الأمريكية
شعبان ١٤١٣هـ
فبراير ١٩٩٣م

تقديم الطبعة الأولى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

(أما بعد)

فآفتُنا – نحن العرب والمسلمين – اليوم : أننا غدونا عالة على غيرنا في علوم العصر كلها : الطبيعية منها والإنسانية ، فهم ينشئون ونحن نتلقى .

والسبب في ذلك لا يرجع إلى ديننا ولا قيمنا ، كما يتوهم بعض الذين يحكمون على الدين من خلال أهله اليوم ، ولو عادوا بأنفسهم إلى الوراء لوجدوا أننا كنا في يوم من الأيام قادة الحضارة في العالم ، وكانت جامعاتنا موئل العلم للطلاب من الشرق والغرب ، وكانت أسماء علمائنا أشهر الأسماء على وجه الأرض ، وكانت كتبهم مراجع علمية عالمية لعدة قرون ، وكانت لغتنا العربية هي لغة العلم الأولى – بل الوحيدة – في تلك العصور . وقد اعترف بذلك مؤرخو العلم والحضارة أمثال بريفولت ، وجورج سارتون،وغوستاف ، لوبون ، وول ديورانت وغيرهم .

القصور فينا إذن ، والتقصير منا ، في المجالين العلميين : الطبيعي الكوني والإنساني الاجتماعي .

بيد أن العلوم الكونية هي علوم محايدة في الأصل ، لا يؤثر فيها اختلاف الأجناس ولا الأوطان ولا الأديان ولا الثقافات ، إلا من جهة فلسفتها ، وطريقة تدريسها .

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فهي الأشد خطرا ، والأبعد أثرا ؛ لأنها

تتصل بحياة الإنسان وسلوكه وعلاقاته ، ولأنها تختلف باختلاف عقائد الأمم وفلسفاتها وقيمها السائدة ، ونظرتها إلى الدين والدنيا ، وإلى الكون والإنسان ، وإلى المادة والروح ، وإلى التاريخ والواقع .

وهذه العلوم اليوم غربية الفكرة والنظرة ، بل التطبيق أيضا ، فالأمثلة كلها منتزعة من الغرب .

والذين يزعمون أن هذه العلوم عالمية وإن نشأت في الغرب ، يكذبهم الواقع ويكذبهم النقاد الأمناء من مفكري الغرب أنفسهم .

لهذا كان اتباعنا للغرب في هذا المجال شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، يمثل خطرا على ثقافتنا ، وعلى قيمنا ، وعلى تميزنا الروحي والأخلاقي والإنساني .

وكان على أهل الاختصاص من علمائنا ومفكرينا أن تكون لهم شخصيتهم المستقلة فى دراستهم لهذه العلوم ، وفى بحثهم لمختلف جوانبها ، فيقفوا منها موقف الفاحص الناقد ، لا موقف المستسلم التابع ، وأن يجتهدوا قليلاً بالرجوع إلى تراثنا الرحب ، وسيجدون فيه الكثير مما يضيء لهم الطريق ، ويكشف لهم الغامض . وكلما ازدادوا بصرا بمواريثنا الثقافية الصحيحة وبالينابيع الصافية من بينات القرآن ، وهدى النبوة ، وسير الأفذاذ من أبناء هذه الأمة استطاعوا أن يحلوا كثيرا من العقد فى هذه العلوم ، وأن يضيفوا إليها الجديد النافع ، وأن يخلصوها من النزعات المادية ، والنظرات التي تتسم بالتعصب وضيق الأفق .

وبهذا تكون لنا (مدارس إسلامية) في هذه العلوم : المدرسة الإسلامية في علم النفس ، والمدرسة الإسلامية في علم الاجتماع ، وهكذا ...

وهذا هو الاصطلاح الذي أرجحه ، بدلا من اصطلاح (علم النفس الإسلامي) و(علم الاجتماع الإسلامي) ونحوهما ...

وأنا لا أريد بهذا أن نطرح كل ما أنجزه الغرب في هذه العلوم ، ونبدأ من الصفر وحدنا ، فالعلم حلقات متصلة يأخذ بعضها ببعض ، كما يصحح بعضها

بعضا ، وتراثنا يعلمنا : أن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها ، فهو أحق الناس بها ، وقد أخذوا منا قديما ، ولا غبار علينا أن نأخذ منهم حديثا .

ولقد كتبت فيما كتبت ، أننا يمكننا أن نستفيد من (ماركس) في الاقتصاد ، و(دوركايم) في علم الاجتماع ، و(فرويد) في علم النفس ، فليس كل ما كتبوه باطلا ، كما ليس كل ما كتبوه معصوما .

المهم أن يكون لنا حق النقد ، وحق الاختيار ، وأن نأخذ وندع من الفكر الغربي وفق معاييرنا نحن ، وأن نخرج عقولنا وأنفسنا من (جحر الضب) الذي وقع فيه عبيد الفكر الغربي بشقيه : الليبرالي والاشتراكي .

و(علم النفس الحديث) بعد أن تغير موضوعه - على يد المدرسة السلوكية - وتطورت مناهجه ودخلت فيه التجربة والإحصاء والاختبار والقياس ، وغدت له معامل ومختبرات ومقاييس مادية ، أحد العلوم الإنسانية الهامة ، التي تحتاج إلى (عقول مسلمة) متخصصة تعالجه من منظور إسلامي ، تدرس النفس الإنسانية ، وبواطن طاقاتها ، وظواهر سلوكها ، وفق معطيات القرآن والسنة ، والفلسفة الكلية للإسلام ، دون اعتساف ولا التواء في الفهم والتفسير ، مستهدية بتراث أئمتنا الأفذاذ الذين جمعوا بين علم الظاهر وعلم القلوب والبصائر .

وقد وفق الله في هذا المجال روادا قاموا بدور ملحوظ فيما نطلق عليه اليوم : (أسلمة المعرفة) إن صح لفظ (الأسلمة) وأجازه أهل اللغة .

من هؤلاء في مصر الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتي ، الذي أصدر كتابيه : (القرآن وعلم النفس) و(الحديث وعلم النفس) ، وعنوانهما يدل على موضوعيهما ، وقد وفى لهذا المجال حقه .

وفي السودان تألق العالم النفسي البحاثة الأستاذ الدكتور مالك بدري ، الذي اشتغل بعلم النفس تدريسا وتأليفا وعلاجا ، وكان له من ثقافته الإسلامية ، ومن

إيمانه بقيم الإسلام ، ومواهب الإنسان ، ما جعله رائد مدرسة لها أنصارها وتلاميذها في النظر إلى النفس الإنسانية وسلوكها من منطلق إسلامي بصير ، يجمع بين فقه التراث ومعرفة العصر .

وقد استطاع أن يعالج كثيرا من المشكلات والأمراض النفسية بما يصفه من أدوية ناجعة مأخوذة من صيدلية الإسلام الخالص ، بما فيه من لمسات إيمانية ، ومعان ربانية ، وشعائر تعبدية ، وآداب وأخلاق إنسانية ، وأحكام شرعية ، مؤمنا بالحديث النبوي الذي يؤكد : « أن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله»[1] . وهذا ينطبق على الأدواء النفسية ، كما ينطبق على الأدواء العضوية .

والكتاب الذي بين أيدينا اليوم : « التفكر من المشاهدة إلى الشهود » للدكتور مالك بدري، يقدم – على قلة صفحاته – دراسة نموذجية من خلال المنظور الإسلامي ومن وجهة نظر علم النفس الحديث ، لموضوع في غاية الأهمية .

ويعني بقوله (من المشاهدة إلى الشهود) : أي ابتداء من الإدراك الحسي الذي يقوم عليه العلم التجريبي إلى منزلة المراقبة والبصيرة الثاقبة التي ترى الله في كل شيء ، وهو ما يسميه ابن تيمية : (الشهود الصحيح) ـ أي وليس المشوش الذي اختلط به الحلول والاتحاد ـ وهو الشهود الذي يشير إليه التفسير النبوي لمرتبة الإحسان ، وهو : أن تعبد الله كأنك تراه .

فهو يدرس هذه (العبادة) أو (الفريضة الإسلامية) كما سماها العقاد رحمه الله في كتاب له ، والتي لم يطالب الرسول الممارين في نبوته بشيء أكثر منها : أن يتفكروا ويحكموا وفق ما يهديهم إليه الفكر الهادئ المخلص : ﴿ **قل : إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم**

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، الباب الأول.

من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (سبأ: ٤٦).

ومعنى أن يقوموا لله : أي أن يخلصوا في طلب الحقيقة ، ومعنى مثنى وفرادى : أي بعيدا عن تأثير العقل الجمعي وضغوطه .

ويركز الكاتب هنا على معنى (العبادة) في التفكر الذى نوه به المسلمون من قديم ، حتى قال حبر الأمة ابن عباس : تفكر ساعة خير من قيام ليلة !

بل قال بعضهم : تفكر ساعة خير من عبادة سنة !

والمؤلف يركز على التفكر باعتباره عبادة حرة طليقة ، لايحدها - فيما عدا التفكر في ذات الله تعالى - عائق ولا قيد من مكان أو زمان أو غيب أو شهادة مقارنا بين التفكر والتفكير ، وبين التفكر والتأمل الارتقائي ، الذي عرفه الغرب أخيرًا نقلاً عن الشرق وبين تفوق المفكر المسلم ــ إذا تفكر في الآفاق وفي الأنفس وسنن الله فيها ــ على غيره من الباحثين والمفكرين؛ لأن لديه من الحوافز ما ليس عند غيره، فهو يرجو من الله مالا يرجو الآخرون.

وقد انعكس هذا على المسلمين في عصورهم الذهبية ، وأنشأوا تلك الحضارة المدهشة التي قامت على العلم والإيمان ، كما يتجلى ذلك فيما اقتبسه د . بدري من روائع تراثنا ، مما كتبه أمثال الغزالي وابن الجوزي وابن القيم .

وقد تحرر كاتبنا في هذا البحث من ضغط (المدرسة السلوكية) في علم النفس بفكرها المعروف الذي قاده (واطسن) والتي احتكرته الجامعات ومراكز البحث لحسابها ، وهى المدرسة التي بالغت في محاولة تبسيط كل نشاطات الإنسان الفكرية المعقدة إلى سلسلة من المثيرات والاستجابات ، حتى يصبح علم النفس علما تجريبيا دقيقا ... ووصل الأمر بالسلوكيين إلى أن أصبح تصورهم المثالي البسيط للإنسان بأنه آلة صماء ، تعرضها لمثيرات بيئية محدودة ، لتقوم باستجابات يتوقعها الباحث ويتنبأ بها .

ولقد نقد الكاتب البصير هذه المبالغة التي كانت رد فعل للمدارس والاتجاهات

السابقة لعلم النفس ، ونقل في ذلك الكلمة الساخرة للعالم البريطاني الشهير سيرل بيرت : إن علم النفس الحديث قد فقد روحه ، ثم فقد شعوره ، ثم فقد عقله !

فلكي يكون علم النفس علما تجريبيا – كما يتصور السلوكيون – فقد أفرغ الإنسان من شعوره ومحتواه العقلي والفكري المعقد ، كما أفرغوه من قبل من محتواه الروحي .

كذلك ناقش المؤلف محاولة جعل علم النفس – كالفيزياء والكيمياء ونحوهما – من علوم المادة ؛ فإن المادة يمكن ضبطها ، بخلاف الإنسان .

كما ناقش الماديين في موضوع صلة العقل بالدماغ ، ودعواهم أن ما نسميه بالعقل المفكر ما هو إلا انعكاسات للمتغيرات الدفينة في كيمياء الدماغ ومنصباته الدفينة الكيموكهربائية .

وقد انتفع المؤلف بما توصل إليه علماء (علم النفس المعرفي) بعد سنين طويلة من البحث العلمي الذي تخطى جميع المدارس ، التي حاولت حصر السلوك الإنساني بمفهومه العام في قمقم نظري محدود .

فالنشاط الفكري الداخلي للإنسان – سواء شعر به الفرد أم لم يشعر – هو الذي يوجه سلوكه وتصرفاته الخارجية ، وليست البيئة – بمثيراتها المختلفة والاستجابات المباشرة لها – هي الموجه الأول للإنسان وأساس تفسير سلوكه ، كما تقول المدرسة السلوكية .

وما وصل إليه علم النفس المعرفي يؤكد صدق ما قرره الإسلام من أن التفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق ، هو العمود الفقري للإيمان ، الذي ينبثق عنه كل عمل خير .

إن الكتاب بفصوله الثمانية نموذج لما يمكن أن تقدمه العلوم الإنسانية من خدمة للإيمان وللقيم الروحية العليا . وبالتالي : للإنسان . إذا تناولها بالبحث والدرس

عقل مسلم متخصص ، قد تحرر من كل تعقب لفكر قديم ، ومن كل عبودية لفكر جديد ، جعل القرآن والسنة نبراسه ، فاجتمع له نور الإيمان والوحي ، ونور العقل والفطرة، فكانا كما قال الله تعالى: ﴿**نور على نور**﴾ (النور: ٣٥).

وأعتقد أن الموضوع قابل لأن ينمو ويتوسع ، والكاتب قادر على ذلك ، ولعله يفعل ذلك في طبعات لاحقة إن شاء الله . زاده الله توفيقا ونفع به وجزاه خيرا عن أمته ودينه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدوحة في : ربيع الأول ١٤١٠هـ
أكتوبر ١٩٨٩م

أ. د. يوسف القرضاوي

مقدمة الكتاب

هذا الكتاب دراسة مبسطة للتفكر فى خلق السموات والأرض من منظور نفسي إسلامي ، حاولت فيها توضيح قيمة التفكر العبادية ومناقشته من وجهة نظر علم النفس الحديث مع تركيز على موضوع الدراسات المعرفية والتفكير و « التأمل الارتقائي » (Transcendental Meditation) فلخصت أهم الإسهامات النفسية الحديثة التي تؤكد قيمة الفكرة والتأمل في تكوين الأسس المعرفية والعاطفية للإنسان وتوجيه سلوكه ودوافعه وصياغة عاداته وعلاج اضطراباته وإثراء حياته النفسية والروحية .

كذلك ناقشت طبيعة التفكر ومراحله من وجهة نظر بعض علماء التراث الإسلامي من أمثال الغزالي وابن القيم وقارنت ذلك بما توصل إليه علم النفس الحديث ، واقترحت تصورا نفسيا إسلاميا لمراحل التفكر من المشاهدة إلى الشهود ، أي ابتداء من مرحلة الإدراك الحسى وإنتهاء بمنزلة المراقبة والبصيرة الثاقبة . وهذه هى المنزلة التي يسميها ابن تيمية « بالشهود الصحيح »[٢] ويصف الذين يصلون إليها بأن « قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ... يشهدون المخلوقات قائمة بأمره مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له »[٣] .

انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن بعض أهم الأساليب القرآنية في الحض على التفكر في خلق السموات والأرض وعن طبيعة التفكر كعبادة حرة طليقة كحرية الإدراك الحسي ، وانطلاق الخيال المؤمن ، لايحدها – غير التفكر في ذات الله تبارك وتعالى – عائق من زمان ولا مكان ولا غيب ولا شهادة .

---

(٢) « فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » : مطابع الرياض ، المجلد العاشر ، صفحة ٢٢١ ـ ٢٢٥ .

(٣) المصدر السابق .

أما في حديثي عن الفروق الفردية في درجات التفكر فقد حاولت أن أصل إلى أهم العوامل البيئية والجِبِلِّية ، التي تجعل بعض المؤمنين أشد عمقا في تفكرهم وأكثر اهتماما بعبادة التفكر من غيرهم . مثل القدرة على التركيز الذهني ، والحالة الانفعالية والعقلية للمؤمن ، ومستوى معرفته بالشيء الذي يتفكر فيه ، وأثر الصحبة والقدوة الصالحة وغيرها من العوامل التي أرجو أن تكون مفيدة للمؤمن الذي يريد أن يعيد النظر في عبادته هذه بالتأكيد على مزاولة الأنشطة الجالبة لعمق الفكرة وإزالة المعوقات الصادة عنها .

وختمت بحثي بدراسة عن التفكر في سنن الكون بالمقارنة «للطريقة العلمية» (Scientific Method) من حيث اعتمادها على الملاحظة المضبوطة والتجريب للوصول إلى النظريات والقوانين العامة . فبينت جوانب التشابه والاختلاف بين هاتين الظاهرتين ، وضربت بعض الأمثلة لعلماء تجريبيين ، قادتهم أبحاثهم إلى الإيمان بأن لهذا الكون إلها مدبرا عليما حكيما ، وأمثلة أخرى لعباد متفكرين من تراثنا الإسلامي قادهم تفكرهم العميق في خلق الله تعالى وفي سننه إلى الوصول إلى حقائق علمية وصل إليها العلم الحديث بعد قرون من وفاتهم .

وقد كانت دراسة هذه الصلة بين التفكر في سنن الكون « والطريقة العلمية » هى أول ما اهتممت به في ربط التفكر بالدراسات النفسية والتربوية الحديثة ، وكتبت ملخصا مختصراً لهذه الدراسة بعنوان التفكر في الكون والإنسان بين العبادة والعلم ، نشرته « مجلة كلية العلوم الاجتماعية » بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام ١٤٠١هـ . وكان اهتمام الأصدقاء والقراء بذلك البحث حافزا لتأليف هذا الكتاب الموسع فجزاهم الله عنا كل خير .

ولابد لي في ختام هذه المقدمة أن أشكر المعهد العالمي للفكر الإسلامي وأخص بالشكر القائمين على فرعه في الخرطوم بما وفروه لكاتب هذه السطور من مراجع وباحثين وكاتبين .

الخرطوم فى : ٢٠ شوال ١٤٠٩ هـ

مالك بدري

(١)

التفكر من وجهة نظر علم النفس الحديث

التفكر من وجهة نظر علم النفس الحديث يدخل في إطار ما يسمى بسيكولوجية التفكير – وهذا الميدان كان مركز اهتمام علم النفس التقليدي في الفترة التي سبقت سيطرة المدرسة السلوكية على علم النفس . فكان اهتمام علم النفس عند بدايته المبكرة منصباً على دراسة تفكير الإنسان ومحتوى شعوره وبناء عقله ، ولم يكن يهتم بموضوع التعلم إلا من خلال هذه المسـائل . فجاءت المدرسـة السلوكية بفكرها المعروف الذي قاده واطسن فقلب الأمور رأسا على عقب وأصبح التعلم الذي يمكن دراسته عن طريق المثيرات والاستجابات الظاهرة هو المحور الأساسي لعلم النفس . أما الشعور ومكونات العقل والتفكير فقد اعتبرت من المسائل التي لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، كما انتقدت الأساليب التي كانت تستخدم لدراستهـا كالاستبطان (Introspection) بأنهـا لا تخضع للضبط التجريبي . لذلك أراد دعاة المدرسة السلوكية لعلم النفس أن يكون علماً تجريبياً دقيقا يعتمد على الظواهر التي يمكن ملاحظتها في المختبر . واعتبروا ما يحدث من نشاط فكري شعوري داخلي لدى الكائن الحي بسبب تعرضه لمثيرات معينة ، اعتبروا ذلك النشاط صندوقا مغلقا لا يمكن التعرف بدقة على ما بداخله ، لذا يجب ألا يضيع الوقت في دراسته . أما الاستجابات الظاهرة التي تصدر بسبب هذا النشاط الداخلي ، والتي يمكن قياسها والتحكم فيها فهي من صميم اهتماماتهم العلمية التجريبية . فأصبح تصورهم المثالي المبسط للإنسان أنه آلة صماء تعرضها لمثيرات بيئية محددة لتقوم باستجابات يتوقعها الباحث ويتنبأ بها . ووصل الأمر بالسلوكيين أن اعتبروا التفكير ليس إلا مجموعة متشابكة من المثيرات والاستجابات

التي لا تعدو أن تكون حديث الشخص الداخلي مع نفسه ، وهذا بسبب مبالغتهم في محاولة تبسيط كل نشاطات الإنسان الفكرية المعقدة إلى سلسلة من المثيرات والاستجابات حتى يصبح علم النفس علما تجريبيا دقيقا .

لكن هذه العلوم الدقيقة كالفيزياء والكيمياء – كما يؤكد المؤلف في بحث آخر – « قد قطعت أشواطا بعيدة وتقدمت بشكل مذهل ليس فقط بسبب طول فترة تطورها التاريخي ولكن أيضا ، وبشكل أهم ، بسبب طبيعتها المادية البحتة . فهي قد استطاعت أن تكون لنفسها وحدات أساسية دقيقة ، ونظريات شاملة تفسر سلوك المادة والطاقة وتفاعلهما بصورة محددة . فما كان لهذه العلوم التجريبية أن تتقدم بهذه الصورة إلا بهذين العاملين .

فمن غير مفهوم الذرة ومكوناتها من بروتونات والكترونات ما كان للكيمياء والفيزياء أن تصلا إلى ما وصلتا إليه . وبالمثل يمكن أن يقال هذا عن الخلية كوحدة أساسية لعلم الأحياء وللمورثات (الجينات) كوحدات لعلم الوراثة وهلم جرا .

وبعد ، فما الوحدات الأساسية لسلوك الكائن الحي في علم النفس ؟ إن طبيعة السلوك المعقدة لا تسمح بمثل هذه الوحدات ، لذلك فإن كل تصور وضع لملء هذا الفراغ في علم النفس كفكرة الفعل المنعكس الشرطي ، داهمه الفشل وطواه النسيان . ولنأخذ هذا الفعل المنعكس الشرطي كمثال لإبراز هذه الصعوبة ، ذلك أنه خير دليل لأنه من أبسط مفاهيم علم النفس لذلك تبناه بعض السلوكيين في فترة تاريخية معينة كوحدة للسلوك . فعلى الرغم من أن الفعل المنعكس الشرطي يفسر جانبا من عملية التعليم البسيط الذي ربما يدخل في كثير من الميادين النفسية إلا أنه لا يمكن اتخاذه كوحدة لعلم النفس بشكل جاد . ذلك أن كثيرا من الميادين والفروع النفسية لا تقوم على قوانين الإشراط ، من ذلك مثلا علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الإنساني (Humanistic Psychology) والإدراك الحسي (Perception) وتعلم اللغات، كلها لا تعتمد على مفاهيم التعلم الشرطي الكلاسيكي والمثير والاستجابة . كما أنه يقصر عن تفسير الجوانب العميقة

والمعقدة في السلوك الإنساني . إذ كيف تفسر (الحب) مثلا عن طريق المثيرات والاستجابات الشرطية المنعكسة ؟ إن طبيعة السلوك المعقدة لا تسمح بمثل هذه التجزئة الشديدة .

فالتفاعل بين العوامل الجسمية والنفسية والاجتماعية الحضارية والروحية لإنتاج «مركب» السلوك الإنساني لا ولن تكون ببساطة التفاعل بين الهايدروجين والأكسجين والكربون لإنتاج مركب سكر الجلوكوز كما يحدث في عملية التمثيل الضوئي عندما يستخدم النبات الطاقة الشمسية لإنتاج السكر من الماء وثاني أكسيد الكربون .

وإن ما يزيد من تعقيد المشكلة بالنسبة لنا – نحن المسلمين – هو أن أحد أهم مكونات السلوك الإنساني قد أسقطه علم النفس الغربي من حسابه رغم ازدياد الشواهد العلمية الحديثة على أهميته ، ألا وهو العامل الروحي . فعلم النفس الحديث باكتفائه بالعوامل النفسية والبيولوجية والاجتماعية والحضارية كمكونات وحيدة للسلوك الإنساني لسهولة تحديدها بالنسبة للناحية الروحية ، أو لرفضه للجانب الروحي لأنه ينبثق من التصور الديني – سيظل في غموض وتيه . تماما كالذي يتوقع أن ينتج سكر الجلوكوز من غير أن يكون الكربون في جزيئاته ، أو على الأصح كالذي يتصور أن تتم عملية التمثيل الضوئي لإنتاج سكر الجلوكوز بالعناصر الكيميائية الثلاثة (الأكسجين والهايدروجين والكربون) من غير أن يضع الطاقة الشمسية في حسابه لأنها أصعب تحديدا من العناصر المادية الثلاثة !

إن ظاهرة تعقيد السلوك الإنساني هذه ، بالإضافة إلى إهمال علم النفس الغربي للجانب الروحي في تكوينه – جعلت علم النفس الحديث يفشل مرة أخرى في وضع نظرية شاملة له كنظرية النسبية لأينشتاين أو نظرية التطور برغم مافي الأخيرة من عيوب كشف عنها العلم الحديث . وقد حاولت بعض المدارس والاتجاهات العامة كالتحليل النفسي و «الجشطالت» وبعض فروع سيكولوجية التعلم وضع مثل

هذه النظريات النفسية الشاملة . لكنها فشلت جميعها وأصبحت تلك الجهود جزءا من تاريخ علم النفس »[٤].

إذن فلكي يكون علم النفس علما تجريبيا ، كما يتصور السلوكيون ، فقد أفرغ الإنسان من شعوره ومحتواه العقلي والفكري المعقد كما أفرغوه من قبل من محتواه الروحي . وفي ذلك يقول العالم البريطاني المشهور سيرل بيرت هازلا : إن علم النفس الحديث قد فقد روحه ثم فقد شعوره ثم فقد عقله .

لكن السلوكية فشلت في حل كثير من المسائل التي طرحتها ، كما كشفت الدراسات الحديثة في مجال علم النفس البيولوجي وعلم النفس المعرفي السطحية في تصورات الفكر السلوكي وممارساته . ويبدو ذلك واضحا بشكل خاص في ميدان تعلم اللغة وتكوين المفاهيم وحل المشكلات وتصنيف المعلومات لدى الإنسان . لذلك فقد بدأ علم النفس منذ بداية النصف الثاني من هذا القرن يهتم اهتماما متزايدا بالعمليات المعرفية والتفكير . فعاد الاهتمام بالوسائل العقلية الداخلية التي يستخدمها الإنسان في تحليل وتصنيف المعلومات التي يستقيها من بيئته ويستخدمها في التخطيط للوصول لغاياته ، وهذا الاتجاه الجديد له أهميه خاصة بالنسبة لإظهار قيمة التفكر من الناحية العلمية والدينية . وبالرغم من أن هذا الاتجاه المعرفي يعتبر عودة بعلم النفس إلى سيرته الأولى ، إلا أن الأساليب المستخدمة الآن تقوم على الوسائل الحديثة التي توصل إليها الإنسان في ميدان دراسة السلوك وفي العلوم التجريبية الأخرى وفي ثورة الكمبيوتر . فغيرت هذه الدراسات المفهوم الميكانيكي المحدود للإنسان الذي تبنته السلوكية واستعيض عنه بمفهوم الإنسان مصنفا ومحللا للمعلومات (Information Processor) لحل مشكلاته وبلوغ أهدافه . فتشبيه التفكير والذاكرة لدي الإنسان عند العلماء المحدثين بجهاز الكمبيوتر ، إنما ذلك لأن الإنسان يتلقى المثيرات المختلفة من بيئته

(٤) مالك بدري: «علم النفس من منظور إسلامي»، أنظر المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية: بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي. ج٣: منهجية العلوم التربوية والنفسية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن فيرجينيا ١٩٩٢ ص٣٣١ــ٣٨٢.

فيقوم بترميزها (Coding) ثم تصنيفها وتخزينها في الذاكرة ثم استعادتها عند الحاجة إليها لحل المشاكل الجديدة التي يتعرض لها .

وهذا التصور وإن كان أكثر واقعية من السلوكية لأنه استرد لعلم النفس الحديث « عقله » و « شعوره » لكنه مازال بعيدا كل البعد عن طبيعة التصور الإسلامي للإنسان .

لاشك أن دراسة هذه العمليات العقلية الداخلية كانت ومازالت رغم تقدم العلم من أعقد الأمور التي تتداخل فيها المثيرات والاستجابات والأسئلة والإجابات بشكل يصعب ملاحظته وقياسه . فدراسة العالم العقلي والنفسي الداخلي للإنسان يضعنا في مواجهة أعقد سؤال نفسي طرحه الإنسان على نفسه أو استقاه من مفاهيمه الدينية ، ألا وهو : ما هى الصلة الحقيقية بين الجسم والعقل ؟ والإجابة على هذا السؤال تختلط فيها الأفكار الفلسفية والعقائد الدينية مع الدراسات النفسية والأبحاث العضوية والبيولوجية للإنسان بشكل عام ودماغه وجهازه العصبي بشكل خاص .

ولعله من المفيد في هذه المقدمة المبسطة أن نذكر أهم جوانب الخلاف في موضوع صلة العقل بالدماغ . فبالرغم من جهلنا بكثير من نشاطات الدماغ الإنساني ، إلا أن الماديين يزعمون بأنه ليس هناك « عقل » للإنسان إلا إذا كانت هذه الكلمة تعني « الدماغ » المادي الذي يحمله كل منا داخل جمجمته . كما يقولون بأن ما نسميه عقلا مفكرا ماهو إلا انعكاسات و« ترجمات » للتغيرات الدقيقة في كيمياء الدماغ ونبضاته العصبية الكيموكهربائية (Electrochemical). ويستدلون على هذا الرأي بأن تفكير الإنسان — بل وشخصيته كلها – تتغير وتتبدل إذا أصاب دماغه تلف ما .

وتؤكد الطائفة المعارضة بأن هناك عقلا يتحكم في هذا الدماغ وبالتالي في سلوك الإنسان وتفكيره. وعلى رأس هؤلاء عالم الأعصاب المشهور (Eccles)[٥]

---

(٥) John Eccles, Facing Reality: Philosophical Adventures by a Brain Scientist, New York: Springer-Verlag, 1970.

الحائز على جائزة نوبل لأبحاثه القيمة في الجهاز العصبي . يؤكد هذا العالم ومن شايعه بأنه لايمكن تفسير المعلومات التي توصل إليها الباحثون عن نشاط الدماغ الإنساني والجهاز العصبي إلا بوجود « عقل » أو « نفس مدركة » تحكم النشاط العصبي والسلوكي للإنسان . ونبسط بعض أفكار هذا الباحث بما ذكره من أننا لو استثرنا جزءا محددا من دماغ الإنسان كهربائيا فسوف تتحرك يده مثلا وبشكل تلقائي . فإذا أمرته ألا يحرك هذه اليد مع استمرارك في استثارة الدماغ – ويمكن أن يحدث هذا تجريبيا – فسوف يحاول إيقاف حركتها بيده الأخرى . ويتساءل هذا العالم هنا عن من هو الذي حرك هذه اليد ومن هو الذي حاول إمساكها ومنعها من الحركة ؟ ويجيب بأن الدماغ يحركها والعقل يحاول إمساكها !

ويشبه هؤلاء العلماء الدماغ بجهاز التلفزيون، والعقل بمحطة الإرسال، فإذا حدث عطب في التلفزيون تشوهت الصورة التي ينقلها أو قد تختفي بالمرة . لذلك فإن الزعم بأن الدماغ هو كل شيء هو تصور ساذج ، تماما كاعتقاد الطفل الصغير بأن كل الأشخاص والصور التي تظهر في شاشة التلفزيون هي في داخل صندوقه !

ومن الواضح أنه بغير هدى ديني صحيح ستظل هذه المشكلة بغير حل جذري . فحتى الجانب العضوي البيولوجي فيها ، وإن كان يبدو سهلا بالمقارنة بالجوانب الفلسفية والدينية والنفسية الأخرى ، إلا أنه في الحقيقة لايقل عنها تعقيدا ، بل قد يفوقها في ذلك في بعض الأحيان . فيتفق علماء دراسة الجهاز العصبي بأن الدماغ الإنساني هو أعقد شيء في كون الله الواسع ، فكما يقول يوتال (Uttal) في كتابه القيم[٦]: (The Psychobiology of the Mind) أن جميع الكشوفات والأبحاث الحديثة في التعرف على عمل الدماغ الإنساني لم تساعدنا في حل عقدة الإنسان التاريخية عن صلة جسمه بعقله ، بل إن هذه المعلومات لم تزد على أن بدلت من تفاصيل المسائل المطروحة عن هذه المعضلة

---

(٦) W. Uttal, The Psychobiology of the Mind, John, London, 1978.

بأسئلة أخرى . وأن الأسئلة الجوهرية التي طرحت في أيام أرسطو منذ أكثر من ألفي عام مازالت تنتظر الإجابة الشافية . فبالرغم من كل ما توصلنا إليه من علم ومعرفة وأجهزة دقيقة ، كما يقول يوتال ، فما زلنا نجهل حتى الكيفية التي يعطي بها الدماغ للإنسان وعيه وشعوره بذاته . وهو أغلى ما يملكه هذا الإنسان[٧].

وهذا أمر يدعو حقيقة للتفكر والتدبر في خلق الله ، وإلى التفكر في حقيقة التفكر والتدبر وأثرهما النفسي والروحي والسلوكي على الإنسان . وما أصدق قول الشاعر السوداني التجاني يوسف بشير عندما يخاطب العقل في قصيدته « أنبياء الحقيقة»[٨]:

رب هبني رضاك من أين صاغت	كفك الطلسم الخفي المستَّر
المسمى بالعقل عندك في الآ	زال من سِرِّ الحياة وسطّر
رب هبني رضاك والعقل من ذا	عاقه أن يبين فينا ويظهر
خفيت ذاته عليه أأضحى	عَرَضا في الزمان أم ظل جوهر
أيها العقل أنت يا حيرة العقـ	ـل ألمّا تكن بنفسك أجدر
يا قُوىً تهدم الحياة وتبنيـ	ـها وتذرو الورى هباء وغثبر

لكن ، وبالرغم من تعقيد هذه المشكلة فقد استطاع الباحثون في علم النفس المعرفي التعرف على كثير من خفايا النشاط الفكري والعقلي الداخلي للإنسان وصلته الدقيقة باللغة . كذلك استطاعوا بالتعاون مع علماء الحاسبات الالكترونية الحديثة في وضع برامج مبسطة لتوضيح بعض الأساليب التي يستخدمها العقل البشري في تصنيف المعلومات . فاتضح مثلا أن اللغة عند الإنسان ليست وسيلة للتخاطب والاتصال فحسب ، بل هي في الحقيقة النظام الأساسي الذي يستخدمه الإنسان في التفكير . فمن غير القوانين التي تحكم نقل المعاني المحسوسة والمجردة

---

(٧) المصدر السابق .

(٨) التجاني يوسف بشير : « إشراقة » ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ م ، صفحة ١٤ ، ١٥ .

عن طريق الكلمات ، لايستطيع الإنسان أن يكوّن المفاهيم المجردة وأن يستفيد من قدرته على التخيل والتذكر والإدراك الحسي في التعامل مع شتى الخبرات التي حدثت في الماضي فيربطها بحاضره ويستنتج منها ما يجب أن يفعله في مستقبل حياته ، ليضع الحلول المناسبة للمشاكل التي يواجهها . وما التفكير في الحقيقة إلا استخدام مثل هذه الرموز من خلال هذه العمليات المعرفية .

بل إن من العلماء ــ من أمثال (Whorf) صاحب نظرية النسبية اللغوية (Linguistic Relativity Hypothesis) ــ من اعتبر أن خصائص اللغة التي تتحدثها جماعة معينة هي التي تحدد وسائل تفكير تلك الجماعة وتصورها للواقع الذي تعيش فيه . أي أن هؤلاء العلماء اعتبروا التركيب اللغوي وخصائص اللغة الأخرى عاملا أساسيا في الطريقة التي يتصور بها المجتمع حقائق العالم الذي يعيش فيه .

ولنقف قليلا مع هذا التصور لأهمية اللغة ، فإنه إن صح جزئيا أو كليا فسوف يدعونا للتأمل في خصائص اللغة العربية وأثرها على مجتمع الجزيرة العربية ، واختيار الحق تبارك وتعالى لها أداة لنقل وحيه وقرآنه ومفاهيم الإسلام للناس كافة ، فحفظ الله تبارك وتعالى هذا الوحي المبارك وبحفظه حفظت اللغة العربية حتى تبقى معجزة القرآن حجة ظاهرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (الحجر: ٩).

وفي هذا الشأن يتحدث العقاد عن اللغة العربية من حيث مفرداتها وجرسها وأصواتها فيقول :

« إن جهاز النطق الإنساني أداة موسيقية وافية ، لم تحسن استخدامها على أوفاها أمة من الأمم القديمة أو الحديثة كما استخدمتها الأمة العربية ، لأنها انتفعت بجميع المخارج الصوتية في تقسيم حروفها»[٩].

---

(٩) عباس محمود العقاد : « اللغة الشاعرة » ، مكتبة غريب ، صفحة ١٦ .

لذلك يعتقد العقاد بأن خصائص اللغة العربية هى التي جعلت الشعر العربي .. « فنا كاملا مستقلا عن الفنون الأخرى»[10] ولا يوجد هذا في أي لغة غير اللغة العربية ، ذلك كما يقول العقاد لأن « الفصاحة العربية قد بلغت بأداة النطق الآدمية غاية ما بلغه الإنسان المعبر عن ذات نفسه بالكلمات والحروف»[11]

ونستمع إلى (أرنست رينان) صاحب كتاب « التاريخ العام للغات السامية » ليحدثنا متعجبا عن مزايا اللغة العربية وأثرها في نقل الإسلام فيقول :

« من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية (العربية) وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري وعند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، ولقد كانت هذه اللغة مجهولة من الأمم ، ولكنها من يوم عرفت ظهرت لنا في حلل الكمال وإلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر ، حتى إنها لم تعرف لها في أطوار حياتها ، لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ، ولا نعلم شبها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة :

لقد استفاض انتشار اللغة العربية فاستولت على أوسع المسافات وأبعد البلدان»[12].

بعد هذا الاستطراد في أهمية اللغة كنظام أساسي للتفكير نعود إلى موضوع أبحاث علماء النفس في محاولاتهم التعرف على نشاطات الإنسان المعرفية الداخلية ، حيث نجد التعاون مع علماء الحاسبات الالكترونية على قدم وساق . فكلا الفريقين من علماء النفس المعرفي وعلماء الحاسبات الالكترونية يهتمون بدراسة قدرة

---

(١٠) المصدر السابق ، صفحة ٣٠ .

(١١) المصدر السابق ، صفحة ٧٠ .

(١٢) إرنست رينان، كما ورد في كتاب أنور الجندي: «الفصحى لغة القرآن»، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م، صفحة٢٧.

الإنسان على تحليل وتصنيف واختزان المعلومات في الذاكرة واسترجاعها عند الحاجة إليها ، فقد أجروا أبحاثاً دقيقة كثيرة للتعرف على بعض الخطوات التي يستخدمها الإنسان فى التفكير وحل المشكلات ، ووضعوا على أساسها شتى البرامج التي تحاكي النشاط المعرفي لدى الإنسان ، بل إن بعضهم قد وضع برنامجا يحاكى أسلوب التفكير الذى يتبعه العصابيون والمرضى النفسانيون فى التكيف المرضى مع بيئاتهم ! ولا شك أن هذه الأبحاث كشفت كثيرا من الجوانب التي كان السلوكيون يعتبرونها صندوقا مغلقا لا سبيل إلى الوصول إلى ما بداخله ، كما أنها أتت بكثير من النظريات والتفسيرات التى أعجزت التصور الساذج لسيكولوجية الارتباط بين المثير والاستجابة ، وفتحت كوة للأخصائي النفسي المسلم ليتعرف بها على أهمية عبادة التفكر وما يصاحبها من نشاط معرفي عقلي داخلي.

ولقد استفاد أخصائيو العلاج النفسي وسيكولوجية الشخصية من مثل هذه الدراسات المعرفية التي تكشف عن تفكير الإنسان الداخلي وأحاسيسه وتصوراته فتشكل سلوكه الخارجي .

فكما ذكرنا من قبل ، أن السلوكيين يركزون على البيئة بمثيراتها المختلفة في تفسير تكوين شخصية الإنسان وسلوكه السوي والشاذ ، أي أن مثيرات البيئة حسب تصورهم تأتي بالاستجابات السلوكية بشكل مباشر . أما أخصائيو علم النفس المعرفي فقد اهتموا بالمعنى الذي تثيره هذه المثيرات في الإنسان ، فالمثير لا يأتي بالاستجابة بشكل مباشر إلا في الحالات الانعكاسية اللاإرادية الجامدة (Reflexes) كسحب اليد إذا تعرضت لسطح حار. أما الاستجابات المعقدة فتأتي تؤثر على أفكار الإنسان وقراراته الطوعية وسلوكه الظاهر ومعتقداته العميقة فتأتي من التصورات والمعاني والخبرات السابقة التي يضفيها الشعور على هذه المثيرات التي يتعرض لها في بيئته . وبمعنى آخر فإن ما يفكر فيه الإنسان هو الذي يؤثر على معتقداته وسلوكه . فإذا كان تفكيره في صنع الله ونعمه كان ذلك سببا في

زيادة إيمانه والارتقاء بأعماله وسلوكه . وإن كان تفكيره في ملاذه وشهواته صرفه ذلك عن دينه وانحط سلوكه ، وإن كان تفكيره في مخاوفه وأحاسيسه بالإحباط والفشل والتشاؤم كان ذلك سببا في إصابته بالاكتئاب الاستجابي والأمراض النفسية الأخرى . لذلك فقد ركز أخصائيو علم النفس المعرفي في علاجهم على تغيير التفكير الشعوري عند الإنسان ، أي ذلك النشاط الفكري الذي يسبق عادة الاستجابات الانفعالية لدى الأسوياء والمرضى . وكثيرا ما يحدث هذا النشاط الفكري المعرفي بصورة سريعة تلقائية لا يلتفت إليها الإنسان إلا إذا دقق فيها النظر وسبر أغوارها .

وقد أثبت هؤلاء العلماء أن كل عمل اختياري يقوم به الإنسان يسبقه نشاط فكري معرفي داخلي . وأن العقل الإنساني لا يكف مطلقا في أي لحظة من لحظات الليل أو النهار عن النشاط الفكري سواء شعر الإنسان بذلك أو لم يشعر . فكثيرا ما يحاول الإنسان حل مشكلة معقدة ، فإذا يئس من حلها وتركها وقام بنشاط آخر جاءه الحل الصحيح بطريقة فجائية بدون جهد شعوري منه أو توقع لهذا الحل . والمثال الكلاسيكي على ذلك هو اكتشاف أرشميدس الفجائيُ لقانون الطفو . كذلك فإن الشخص الذي يفشل في تذكر اسم أو كلمة معينة تأتيه الذكرى بعد حين وبطريقة فجائية مشابهة لما ذكرناه .

إذن فالنشاط الفكرى الداخلي للإنسان سواء شعر به الفرد أو لم يشعر به هو الذي يوجه سلوكه وتصرفاته الخارجية . وهذا الاستنتاج الذي توصل إليه علماء علم النفس المعرفي بعد سنين طويلة من البحث العلمي الذي تخطى جميع المدارس التي حاولت حصر السلوك الإنساني بمفهومه العام في قمقم نظري محدود ، هذا الاستنتاج يؤكد صدق ما قرره الإسلام من أن التفكر في خلق الله هو العمود الفقري للإيمان الذي ينبثق عنه كل عمل خيّر .

فكما توصل علماء النفس المعرفي إلى أن كل عمل يبدأ بنشاط معرفي داخلي كخاطرة أو تخيل أو إدراك حسي أو انفعال ، توصلوا كذلك إلى أن هذا النشاط

المعرفي إذا ازدادت قوته أصبح دافعا (Motive) للسلوك ، وإذا قام الفرد بهذا السلوك المدفوع وكرره فإن الأفكار الداخلية حينئذ تكتسب القدرة على الإتيان بهذه الأعمال بطريقة تلقائية حتى تصبح عادة متأصلة ، فإذا أراد الأخصائي النفسي المعرفي علاج هذه العادة وتغييرها فعليه أولا أن يغير من الأفكار الداخلية والشعورية التي تأتي بها . فإذا كانت العادة هى الخوف من المواقف الاجتماعية مثلا فعلى المعالج أن يتعرف على الأفكار الداخلية التي تأتي باستجابة هذا الخوف الاجتماعي ومساعدة المريض على تغييرها بطريقة علمية وعملية تثبت للمريض أن تلك الأفكار لم تكن مبنية على تصورات حقيقية ، إنما تقوم على أوهام وتخيلات لا أساس لها من الصحة ، لكن المريض كان قد اقتنع بها فغدت متحكمة في سلوكه . فقد يتصور المريض مثلا أنه سيبدو سخيفا ومصدر سخرية للآخرين إذا تحدث أو عرف نفسه للغرباء ، أو إذا ألقى خطابا أمام جمع من معارفه ، فإذا تغيرت هذه الأفكار الداخلية فإن السلوك سيتغير تبعا لها .

كذلك يتم هذا العلاج النفسي باستثارة استجابات مضادة للأفكار والتصورات والانفعالات الداخلية التي تأتي بالعادة . ففي حالة الخوف من المواقف الاجتماعية يستثير المعالج في المريض الإحساس بالطمأنينة والراحة النفسية بأي أسلوب يراه في ذات الوقت الذي يعرضه فيه إلى مواقف اجتماعية متدرجة في شدتها . إما بتعريضه لمواقف اجتماعية حقيقية أو عن طريق تخيله لهذه المواقف . أما إذا كانت العادة تأتي للفرد باللذة والارتياح النفسي فإن العلاج بالضد يحتم على المعالج بأن يستثير فيه الإحساس بالألم والتوتر النفسي والخوف عندما يقوم بتكرار هذه العادة التي يرجو المعالج النفسي استئصالها . فالمدمن على تعاطي المسكرات والمخدرات مثلا يحقن بمواد كيميائية تأتي بالغثيان والصداع في أثناء احتسائه للخمر ، كما يمكن تعريضه للصدمات الكهربائية المؤلمة . وهذا ما يسمى بالعلاج بالضد أو بالنقيض (Reciprocal Inhibition) وهو ركيزة العلاج السلوكي الحديث . وهذا النوع من العلاج وإن كان قد استحدثه العلماء السلوكيون إلا أن أخصائيي علم النفس

المعرفي طوروه وعمقوا من أبعاده بربطه بالتفكير والأحاسيس الشعورية عند المريض . كذلك استعانوا في علاج كثير من العادات النفسية المرضية بمساعدة الفرد على التعرف على أفكاره وقيمه الخاطئة التي هي بمثابة حجر الزاوية لتصرفاته وسلوكه الخارجي .

إذن فعلم النفس المعرفي يؤكد على أن ما يفكر فيه الإنسان ويشعر به وينفعل له ويدركه على المستوى الشعوري ، هو الذي يشكل تصوراته للحياة ويصوغ عقائده وقيمه ويوجه تصرفاته الخارجية السوية منها والشاذة .

(٢)

ما بين التفكير والتفكر

لقد أسهبنا في تلخيص أحدث ماتوصل إليه علم النفس في ميدان التفكير والنشاط المعرفي للإنسان لنوضح أهمية التفكر بوصفه عبادة في توجيه سلوك المسلم والارتقاء بإيمانه . فإذا كان للتفكير الداخلي من مشاعر وإدراكات حسية وتخيل وأفكار، كلُّ هذا الأثر في تكوين سلوك الفرد وميوله وعقائده ونشاطه الشعوري واللاشعوري وعاداته الحسنة والسيئة ، اتضحت لنا بعض جوانب الحكمة من اهتمام القرآن الكريم والسنة المطهرة بموضوع التدبر والتفكر في خلق السموات والأرض بالطريقة التي تملأ العقل والقلب بجلال الخلاق سبحانه وكريم صفاته ، حتى قيل « ... الفكر ... هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ... وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له »[١٣] وبالرغم من أن ما ذكرناه هو آخر ما توصل إليه علم النفس المعرفي في موضوع التفكير فإن هذا الأمر لم يكن خافيا على علماء المسلمين القدامى . فقد فصّلوا القول عن أهمية الخواطر والأفكار التي تدور في الذهن قبل أن تصبح دافعا وشهوة تزداد قوة حتى ينفذها الفرد بالفعل في واقع الحياة ، فإذا كررها أصبحت عادة ، كما فصلوا القول عن استمرار النشاط الفكري الداخلي للإنسان ، هذا النشاط الذهني الذي لا يتوقف عن العمل في أي لحظة من حياة الفرد ، وقدموا خالص النصح لمن أراد أن تكون أفعاله خيرة أن يراقب أفكاره وخواطره ، وأن يديم ذكر الله والتأمل والتفكر في خلق السموات والأرض . فإذا ما ظهرت الخواطر والأفكار فستتبعها الأقوال والأعمال ، وأكدوا بأنه يسهل على المرء أن يغير

---

(١٣) ابن قيم الجوزية : « مفتاح دار السعادة » ، الجزء الأول ، صفحة ١٨٣ ، رئاسة الإفتاء ، الرياض .

الخواطر والأفكار الضارة قبل أن تصبح شهوة ودافعا ، وقالوا بأن تغيير الدافع أسهل من إيقاف الأمر إذا صار فعلا في واقع الحياة ، وإيقاف الفعل أسهل من اقتلاعه بعد أن يصبح عادة، وعلاج العادة يتم بتعويد المرء على ضدها، كل ذلك ذكره العلامة ابن القيم في كتابه الفوائد ، وفصله بدقة وكأنه اطلع على أحدث ما توصل إليه علم النفس المعرفي الحديث . وإليك ما قاله ابن القيم في هذا الموضوع(١٤) :

«دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، ودافع الفكرة فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها!!»(١٤).

واعلم أن مبدأ كل عمل اختياري هو الخواطر والأفكار ، فإنها توجب التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكثرة تكراره تعطي العادة ، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار ، وفسادها بفسادها .

فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها ، وإلهها ، صاعدة إليه دائرة على مرضاته ومحابه ، فإنه سبحانه به كل صلاح ، ومن عنده كل هدى ، ومن توفيقه كل رشد ، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن تولي العبد وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء !

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر ، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر ، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة ، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل ، فتستحكم فتصير عادة ، فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها .

ومعلوم أن الإنسان لم يعط إماتة الخواطر ، ولا القوة على قطعها ، فإنها

---

(١٤) ابن قيم الجوزية : « الفوائد » ، الطبعة المصرية ، ١٣٤٤ هـ ، صفحة ٣١ ، ١٧٣ ،

تهجم عليه هجوم النفس ، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له ، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه .

وقد خلق الله سبحانه وتعالى النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولابد لها من شيء تطحنه . فإن وضع فيها حب طحنته ، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته .

فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هى بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى ، ولا تبقىٰ تلك الرحى معطلة قط ، بل لابد لها من شيء يوضع فيها ، فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره ، وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبنا ونحو ذلك ! فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه !! » انتهى كلام ابن القيم .

وإذا كان العلاج السلوكي والمعرفي الحديث قد توصل إلى أنه من أنجح أساليب العلاج للأفكار والانفعالات المرضية هو استثارة الاستجابات المضادة لها على أن يحدث ذلك بشكل تدريجي - كما يوضح مبدأ العلاج بالنقيض ، فإن ابن القيم قد أكد على هذا النهج من العلاج بالضد في أكثر من موقع من كتبه القيمة .

أما الغزالي فلم يكتف بالناحية النظرية بل تعدى ذلك بالتطبيق العملي وضرب لذلك شتى الأمثلة الواقعية . فيذكر في إحيائه أن على المسلم الذي يريد أن تكون أخلاقه جميلة أن يغير أولا أفكاره عن نفسه، ثم يتكلف القيام بهذه الأخلاق الجميلة بالتدريج حتى تصبح له عادة. ويؤكد الغزالي - بمفاهيم علماء اليوم - بأن التفاعل بين الناحية المعرفية النفسية وبين السلوك العملي أمر حتمي ، فما أن يقوم الفرد بسلوك أخلاقي معين - ولو كان ذلك تكلفا - حتى يظهر أثره في تفكيره ومشاعره ، وما أن يغير من أفكاره وأحاسيسه حتى يتغير سلوكه الخارجي ويظهر ذلك على جوارحه ، واستمع إلى تفصيل هذا القول من الغزالي نفسه :

« ... قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعنى النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك إلا على وفقها لا محالة ، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور »[١٥] .

أما عن موضوع العلاج بالضد والنقيض والتدرب في هذا العلاج فنجد أن الغزالي يلخص أهم ما وصل إليه علم النفس السلوكي والمعرفي بكلمات قليلة واضحة وأمثلة دقيقة ملموسة حيث يقول :

« ... وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هى مرض القلب علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا » .

« ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لايسخو بترك الرعونة رأسا ، أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ، فينبغي أن ينقله (الشيخ المعلم) من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ، كالذي يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لايزيل الدم »[١٦].

ويضرب الغزالي لذلك مثلا برجل كان يشكو من شدة الغضب ، فكان يعوّد نفسه الحلم بالتدريج بتغيير أفكاره وانفعالاته وبالتدريب العملي في واقع حياته

---

(١٥) أبو حامد الغزالي: «إحياء علوم الدين» ، دار القلم بيروت ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٦ - ٥٩ .

(١٦) المصدر السابق .

حتى وصل به الأمر كما يقول الغزالي إلى أن « ... يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل »[١٧].

يتضح من ذلك أن التفكر وما يصاحبه من ذكر هو العمود الفقري لتغيير تصور المسلم عن نفسه واستعداده بعد ذلك لتغيير سلوكه وعاداته ، فبدون هذا التغيير لايمكن تعديل السلوك والعادات .

إذن فالتفكر هو مفتاح كل خير لأنه يصبغ جميع النشاطات المعرفية للمؤمن بذكر الله تعالى والتعرف على آلائه ونعمه ، فكما يقول الغزالي : « الطريق إلى معرفة الله سبحانه (هو) التعظيم له في مخلوقاته والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته ، و ... هو السبب لرسوخ اليقين وفيه تفاوت درجات المتقين ... ... فإن الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي ، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته ، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته »[١٨].

ومن الواضح أن مثل هذا التفكر يشمل الجانب الفكري والعاطفي والانفعالي والإدراكي للمؤمن ، أي أنه يشمل جميع أنشطته النفسية والمعرفية والروحية . ومن الصعب أن يتصور الإنسان ذاكرا لله قليل التفكر في مخلوقاته ، أو أن يتصور متفكرا في خلق الله لا يعد من الذاكرين .

فكما قال الحسن البصري : « إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة »[١٩] فإذا داوم المرء على التفكر أصبح له عادة طيبة مباركة وخشع قلبه ، وأصبح كل

---

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) أبو حامد الغزالي : « الحكمة في مخلوقات الله » ، صفحة ١٣ ، ١٤ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ١٩٨٤ م .

(١٩) ابن قيم الجوزية : « مفتاح دار السعادة » ، صفحة ١٨٠ .

مثير في بيئته لا يستجيب له إلا بالطيب من الأحاسيس والمشاعر التي تسيطر على شعوره ونشاطه الفكري الداخلي . فقد قيل لأحد العبّاد : « إنك تطيل الفكرة فقال : الفكرة مخ العقل ! ! » وكان سفيان كثيرا ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكـرة   ففي كل شيء له عبرة[20]

وبما أن بداية كل عمل إنما هو نشاط فكري معرفي شعوري ، فإن من يطيل الفكرة يسهل عليه القيام بالطاعات والعبادات . وفي ذلك يقول الغزالي في إحيائه : « إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكرة ذكر وزيادة »[21].

وكما أن النشاط الفكري الداخلي هو مفتاح كل خير وعمل صالح فهو كذلك أصل كل معصية باطنة أو ظاهرة بالجوارح . لذلك فإن القلب المتدبر المتفكر في آلاء الله والموصول بالآخرة يكتشف الخواطر الشريرة التي تمر على ذهنه بسهولة ويسر بفضل حساسيته المفرطة التي اكتسبها من إدامة التفكر والذكر . فما أن تطل خاطرة شريرة في ذهنه إلا وتكتشفها أفكاره وأحاسيسه المرهفة وتصوراته الخيرة فتحيط بها وتفسد مفعولها تماما كما يكتشف الجسم الصحيح الجراثيم الوافدة عليه فيحاصرها ويدمرها . فالعالم الفكري والروحي والانفعالي لمن يصلون ليلهم بنهارهم في التفكر في آلاء الله وفي الدنيا والآخرة هو عالم محفوظ ، إذا حاولت الخواطر الشريرة أن تسترق لها مكانا فيه جاءتها شهب الخير ورجومه فأحرقتها وأبطلت مفعولها ، كالشهب التي تحرس السماء من استراق الشياطين للسمع.

---

(٢٠) المصدر السابق ، صفحة ١٨٠ .

(٢١) أبو حامد الغزالي: «إحياء علوم الدين»، الجزء الرابع ، صفحة ٣٨٩.

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف: ٢٠١).

إذن فالتفكر يستفيد من كل الأساليب المعرفية التي يستخدمها الإنسان في عمليات التفكير التي فصلناها من قبل ، لكنه يختلف عن التفكير في عمقه وفي أنه يعبر بتصوراته ومفاهيمه من الدنيا إلى الآخرة ومن المخلوقات إلى خالقها جل وعلا . وهذا العبور هو ما يعبر عنه باصطلاح العبرة والاعتبار . لذلك قد يكون التفكير محصورا في حل المشكلات الدنيوية وربما يكون بعيدا عن العاطفة والانفعال ، لكن التفكر بعبوره برزخ الدنيا وضيقها إلى سعة الآخرة ، وخروجه من قمقم المادة إلى انطلاق الروح اللانهائيُ ، يحرك جميع نشاطات المؤمن المعرفية الداخلية والخارجية . فهو يستفيد من الخبرات السابقة ويربطها بإدراكه الحسي للمخلوقات التي يتفكر فيها وبرموزها وتعبيراتها التي اكتسبها من استخدامه للغة ، ويضفي عليها من تصوراته وخيالاته لما كانت عليه في الماضي وما يمكن أن تصير إليه في مستقبل حياتها . ويؤجج كل ذلك بعاطفة جياشة وخشية صادقة لله عز وجل . لذلك أكد الغزالي على أن التفكر هو « إحضار معرفتين في القلب ليستثير منهما معرفة ثالثة » ، ومثاله في ذلك أن « من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة . فعليه أن يعرف (أولا) أن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف (ثانيا) أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين »[٢٢] ويعتقد الغزالى أن نمو المعارف يتم عن طريق ازدواجها بهذا الأسلوب، لأن المعرفة – كما يقول – هى نتاج المعرفة . وإذا استطاع المؤمن المتفكر أن يرتب معارفه على نمط معين فسيزداد النتاج الفكري وينمو إلى غير نهاية لا يقف في طريقه إلا عوائق الحياة أو الموت .

---

(٢٢) المصدر السابق، الجزء الرابع، صفحة ٣٨٨.

ويوضح الغزالي في ذلك الفرق بين التفكير المادي والتفكر بقوله إن الإنسان قد يحرم من العلوم التي تأتي عن طريق التفكر لأنه لا يملك المعارف الأولية التي تساعده على التفكر ، فلا يستطيع أعرابي جاهل مثلا أن يستثمر تفكرا مفيدا في موضوع مكونات الذرة من الكترونات وبروتونات . كذلك لا يستطيع من لا يعرف الله أن يتفكر في هذا الموضوع حتى وإن كان متخصصا فى الفيزياء ، ويعبر الغزالى عن هذا الموضوع بالآتي :

« ...أكثر الناس منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم ، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها »[٢٣] .

وفي رأينا الشخصي أن التفكر يمر بثلاث مراحل متداخلة . تنتهي بالمرحلة الرابعة الأخيرة التي اخترت لها اصطلاح « الشهود » . فهو يبدأ أولاً بالمعارف التي تأتي عن طريق الإدراك الحسي المباشر بالنظر والسمع واللمس وغيرها من الحواس ، أو بطريق غير مباشر كما يحدث في ظاهرة التخيل ، أو قد تكون هذه المعارف عقلية مجردة، وكثيراً ما تكون هذه المعارف لا ارتباط لها بالنواحي العاطفية والانفعالية .

فإذا دقق الإنسان فيها النظر وتعرف على بعض خصائصها الجمالية ودقة صنعها أو قوتها وشخاصتها ، فإنه ينتقل من المعرفة الباردة إلى الانبهار بجمال التنسيق وعظمة الصنع وبهاء المنظر، وهذه هى المرحلة الثانية وهى مرحلة تذوق وأحاسيس مرهفة ومشاعر متدفقة .

فإذا انتقل بعد ذلك بهذا الإحساس إلى الخالق المبدع فسيزيده هذا خشوعاً

(٢٣) المصدر السابق، الجزء الرابع، صفحة ٣٨٨، ٣٨٩.

ومعرفة بالله وبصفاته العلية ، وبهذا تكتمل حلقات التفكر الثلاث . فالنظر في المخلوقات لايعدو أن يكون مرحلة بدائية يشترك فيها المؤمن والكافر، كذلك فإن المرحلة الثانية أي مرحلة التذوق لدقة الصنع وجمال التنسيق قد تهتز لها القلوب بغض النظر عن إيمانها أو كفرها ، لكن المعرفة الثالثة التي تأتي بربط هذا التذوق لجمال الكون ودقة صنعته بمبدعه جل وعلا هي النعمة الكبرى التي لا تكون إلا لمؤمن .

على أن المؤمن قد يكون في حالة من الخشية والذكر لله تعالى ثم ينظر وهو في هذه الحالة العاطفية إلى ما حوله من خلق الله فلا يحتاج إلى التفكير المجرد البارد ، بل لا يرى إلا دقة الصنع الإلهي وجمال إبداع الكون فيزداد خشية على خشية وتعظيماً لربه . ولعل هذا التصور النفسي الحديث هو الذي يوضح ما ذكرناه من قول الحسن البصري بأن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . وإذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر التعلم وتكوين العادات ، فسنقول بأن المؤمن إذا داوم على هذه الحالة وصل إلى المرحلة الرابعة التي يصبح التفكر فيها عادة متأصلة فيه ، بعد أن كان هذا التأمل أمراً لا تأتي به إلا الخبرات المؤثرة والحوادث النادرة في بيئته . وسوف يزداد بالتدريج الوقت الذي يقضيه في اليوم والليلة في نشاطه التأملي . وتمسي الأشياء العادية المألوفة – التي كان يمر عليها غافلاً – مصدر إثراء للفكر العميق والخشية والتأمل في آلاء الله تعالى وفضله ، حتى يصبح كل شيء في بيئته مثيراً للفكر ومحركاً للتأمل ، عندها يكون قد وصل بالفعل إلى مرحلة البصيرة والشهود التي يتحدث عنها كثير من العلماء وعلى رأسهم ابن القيم ، حيث يقول عن المتفكر الذي يصل إلى هذه المنزلة إنه « يفتح له باب شهود عظمة الله ... وباب الشعور بمشهد القيومية . فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده ، فيشهده مالك الضر والنفع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ... وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على

خالقه وبارئه وصفات كماله ونعوت جلاله »[٢٤] أما ابن تيمية فقد ذكرنا في مقدمة كتابنا هذا أنه يسمي هذه المرحلة « بالشهود الصحيح » الذي يشهد فيها المؤمن المتفكر كل « المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له ... ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما في قلوبهم من إخلاص الدين ... »[٢٥] . واضعين نصب أعينهم تمييز القديم عن الحادث ومباينة الخالق سبحانه لمخلوقاته وتوحده دونهم .

وفي الحقيقة إن المؤمن الذي يصل إلى المرحلة الثانية من التذوق لجمال الخلق وضخامته ودقة صنعه لابد له من الانتقال بأحاسيسه المرهفة هذه إلى الصانع المدبر سبحانه . ولابد له من الشعور بحقارة نفسه وضعف قدراته حيال الآيات الكونية التي يراها في السماء والأرض . فهذا الكون بكل اتساعه ما هو في الحقيقة إلا « معبد » و « مسجد » لايدخله إلا المؤمن عندما تصفو روحه ويخشع قلبه ويلقي السمع وهو شهيد .

إن أهمية هذا الانبهار بدقة الصنع وجماله وضخامته ، وإحساس الإنسان بالتضاؤل الجسمي والنفسي حيال ما يشاهده ، هو أمر فطري ركبه الخالق جل وعلا في كيان الإنسان لينظر به في السماء والأرض فيهتدي به إليه فتخشع جوارحه ويعبده تعالى رغبة ورهبة . فإذا لم يهتد الإنسان إلى الله وانحرف عن صراطه المستقيم ليسلك وعورة الشرك والوثنية فلابد له أن يستخدم نفس هذه الطبيعة الفطرية وإن أساء استعمالها . هذا هو الأمر الذي حمل الديانات الوثنية في تاريخ الإنسان القديم والحديث على المبالغة في حجم معابدها وجمالها ودقة تصميمها وتزيينها بأجمل التحف واللوحات المعبرة والألحان الشجية . انظر مثلا إلى جمال معبد أثينا « البارثينون » وإلى ارتفاع أعمدة معبد المشترى (Jupiter)

---

(٢٤) ابن قيم الجوزية: «مدارج السالكين»، تهذيب عبد المنعم العزي، دولة الإمارات العربية، وزارة الأوقاف.

(٢٥) « فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » ، مصدر سابق صفحة ٢٢١ – ٢٢٥ .

في بعلبك في لبنان الذي استغرق بناؤه قرنين من الزمان وأحضرت له الأحجار الضخمة من أسوان في مصر[٢٦] . وانظر إلى معبد آمون في الكرنك الذي بناه قدماء المصريين في مساحة تبلغ ٥٨٠٠ ياردة مربعة وهو يقوم على أعمدة ضخمة طول الواحد منها ٧٨ قدما[٢٧] ، فيشعر الداخل إليه الناظر إلى سقفه الشاهق الارتفاع بأنه قزم حقير أمام عملاق من الجرانيت والرخام والمرمر . هذه المعابد التي بنتها الديانات الوثنية هى أضخم ماشيده الإنسان في تاريخه الطويل وما أكثر ما صرفه عليها من الجهد والمال . ذلك ، حتى إذا دخلها المتعبد الوثني أحس بالرهبة والانبهار وتقبل بعد ذلك ما يمليه الكهنة والسحرة عليه من الخرافات والأفكار الوثنية .

ولعل ذلك يجعلنا نتفكر فى بساطة بيت الله وكعبته المشرفة – بالمقارنة لتلك المعابد – رغم أنها تقوم فى أعظم مساجد الإسلام قاطبة . فما هى – حتى فى أيام عزة الإسلام الحقيقية في حياة الرسول ﷺ – إلا غرفة صغيرة في فناء واسع في وادي غير ذي زرع .

وقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه وصف بناء مسجده في المدينة المنورة بقوله : « خشبات وثمامات ، عريش كعريش أخي موسى صلوات الله عليه . الأمر أعجل من ذلك»[٢٨]. وقد بنى مسجد الرسول ﷺ بالفعل بهذه البساطة.. باللبن والطين وكان سقفه من جريد النخل والثمامات ، ولم يكن ارتفاعه ليزيد إلا بوصات قليلة فوق رؤوس طوال القامة من الصحابة.

ويعلق الشيخ محمد الغزالي عن بساطة بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة فيقول : « وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء ، وسقفه

---

(٢٦) Encyclopeadia Britanicca .

(٢٧) Ibid .

(٢٨) رواه رزين كما ورد فى كتاب « محمد رسول الله ﷺ » تأليف : محمد رضا ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٩ م ، صفحة ١٧٠ .

الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح ... هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذي ربى ملائكة البشر ومؤدبي الجبابرة وملوك الدار الآخرة ، في هذا المسجد أذن الرحمن لنبي يؤم بالقرآن خيرة من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل »[٢٩] .

ويبدو أنه كلما ضعف الارتباط الحقيقي بين الشعوب الإسلامية وخالقها جل وعلا ازداد اهتمامهم بتعظيم مباني المساجد وتجميلها على حساب تزكية النفوس وصقلها . وفي ذلك يقول الغزالي أيضا : « ... لكن الناس – لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة – استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة ، تضم مصلين أقزاما ! ! أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها »[٣٠] .

قدمت في هذا الفصل ملخصا لتصوري عن المراحل الثلاث التي يمر بها المؤمن في انتقاله من المشاهدة إلى الشهود ... إدراك حسي ثم تذوق وانبهار ثم تفكر خاشع . لكنني لا أريد أن أحصر التفكر على الأشياء الجميلة أو دقيقة الصنع في هذا الكون الذي يجمع بين الجميل والقبيح ، والعظيم والحقير ، والخيّر والشرير . فقد تكون المشاهدة لخبرات مؤلمة أو مخيفة أو مقززة ، وقد يكون « التذوق » انفعاليا سلبيا ويكون التفكر بالعبرة من هذه المشاهد السلبية التي تذكر المتفكر باجتنابها أو الخوف منها أو كراهتها والتقزز منها ..

فكم من متجبر شرير يأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر فيتفكر المؤمنون فيما حدث له ويعتبرون بمصيره ، كما حدث لقارون الذي خسف الله به وبداره الأرض ... ﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط**

---

(٢٩) محمد الغزالي: « فقه السيرة » ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٠ م ، صفحة ١٩٠ .

(٣٠) المصدر السابق.

الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ (القصص: ٨٢).

وكم من عالم باحث متحدث مشهور أدمن على الخمر والمخدرات ، فتليفت كبده وتلف دماغه وأصيب بالهذيان والهذاءات والهلاوس ، ولم يبق منه إلا بقايا من إنسان يحتضر وجثة تتنفس .

هذه المشاهدات تدعو المرء للتفكر والاعتبار ، وربما بأسلوب قد يفوق ذلك التفكر الذي يأتي عن طريق التذوق الهادئ لجمال الصنع ودقته .

ولعلي أذكر للقارئ بهذه المناسبة خبرة شخصية لهذا النوع من الاعتبار الذي يأتي من الخبرات المؤلمة . فقد توفي شاب يسكن مسجدا بجوار منزلنا كانت قد أغلقت أبوابه لإصلاحات ضرورية ، ولأن وفاته كانت بالخميس فلم يهتد أحد لموته إلا صباح السبت . فحضرت مع جماعة لنقل جثمانه إلى حيث يغسل ويحضر للدفن . فعندما رفعوا الجثة رأيت الدود قد تجمع في الأرض الرطبة التي كان يرقد عليها الجثمان . وأشهد أن كل ما قرأته عن الموت وعن التفكر في تفاهة الحياة لم يكن له إلا تأثير ضئيل جدا بالمقارنة لذلك الشعور الذي تملكني في تلك اللحظات .

نكتفي بهذا القدر في حديثنا عن التفكير والتفكر لأننا سنعود لطرح هذا الموضوع من زاوية أخرى في الصفحات التالية عندما نطرق موضوع: **«الفروق الفردية في درجات التفكر»**.

(٣)

ما بين التفكر و «التأمل الارتقائي»

لقد انتشرت ممارسة « التأمل الارتقائي » في أوروبا وأمريكا بشكل واسع لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه الأمم ، وذلك بعد أن أثبت هذا التأمل - بجذوره الهندية والشرقية القديمة - مقدرته الفائقة في علاج الأمراض المرتبطة بالمشاكل الانفعالية والمعرفية وشفاء غيرها من الاضطرابات كالإدمان والقلق وشتى أنواع العصاب .

لذلك رأينا أن نفرد هذا الفصل لنلخص أهمية الجوانب المعرفية والانفعالية في تكوين الاضطرابات الجسمية ، ودور التأمل في علاجها وصلة كل ذلك بالتفكر كعبادة إسلامية .

إن المتفكر في شرائع الإسلام وعباداته المفروضة يجد أن في كل ما أمر الله به أو نهى عنه فائدة للمسلم في دنياه قبل آخرته . ولعله من الواضح الآن أنه كلما تقدم العلم الحديث في مجال الطب والعلوم النفسية والاجتماعية ، ظهرت الفوائد والحكم التي لا تحصى من تطبيق دقائق التشريع .

فهناك جوانب ظاهرة فيما حرمه الله قد فرغ العلم من إثبات حكمتها كالمنع الحاسم لشرب الخمر وتعاطي المخدرات والزنا واللواط . فالخمر والمخدرات قد أصبحتا اليوم الخطر الأساسي الذي يهدد الحضارة الحديثة بشقيها الغربي والشرقي .

فهذه أمريكا تعلن بأن الكحول أصبح مشكلتها الأولى ، وأن المجتمع الأمريكي يفقد بلايين الدولارات كل سنة بسبب ما يصرفه في علاج الإدمان وما يخسره من آلاف الحوادث التي يسببها السكارى « والمسطولين ! » هذا بالإضافة إلى حرمان المجتمع من إسهام الملايين من الذين يقعدهم الإدمان عن العمل المثمر .

فالإدمان يعتبر في أوروبا وأمريكا السبب الثالث للموت بعد الأزمات القلبية والسرطان .

كذلك أصبحنا نستمع من وسائل الإعلام الأوربية والأمريكية عن أهمية الامتناع عن الزنا والشذوذ الجنسي ، بعد انتشار مرض الإيدز والأمراض الجنسية الأخرى .

أما فيما أمر به الشرع من فرائض وسنن ومستحبات فنجد الأبحاث الطبية الحديثة تؤكد على فوائدها في الحفاظ على الصحة الجسمية والنفسية للمؤمنين ، فالنظافة الجسدية التي يكتسبها المؤمنون من الوضوء والسواك قبل الصلوات الخمس وغسل الجنابة وغيرها من السنن لها جوانبها الصحية الواضحة . وتطالعنا هذه الفوائد القيمة على كل درب يسلكه المسلم في عبادته وممارسته سنن الإسلام . فالاقتصاد في الطعام وعدم الإسراف المؤدي للبدانة.. ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾ (الأعراف: ٣١)، والقيم الصحية للصوم والرياضة البدنية في الصلاة وغيرها، له في المحاسن ما لا يحصى.

ومن هذا المنطلق نسأل أنفسنا عن قيمة التفكر والتأمل من حيث هو عبادة بالنسبة للصحة الجسمية والنفسية للمؤمن ، وسنجد الجواب في المئات من الكتب والأبحاث التي أجريت في الآونة الأخيرة لتأكيد قيمة التأمل الارتقائي (Transcendental Meditation) والعامل الروحي والإيماني(Faith Factor) في علاج التوتر والقلق وضغط الدم والصداع النصفي والأرق وتخفيض نسبة الكولسترول في الدم وغيرها من الاضطرابات النفسجسمية « السيكوسوماتية » (Psychosomatic).

إن الدراسات الحديثة في ميدان الطب السيكوسوماتي « النفسجسمي » ، تؤكد بأن التفكير والنشاط المعرفي للإنسان له دور فعال بالنسبة لإصابة الإنسان بشتى الأمراض ، كما أن تغيير هذا التفكير وهذا النشاط المعرفي الذي تسبب في إحداث هذه الأمراض والاضطرابات يساعد كثيرا في شفاء الفرد أو تحسين حالته

الصحية بقدر كبير. وهذا مصداق للأثر المشهور «لا تمارضوا فتمرضوا فتموتوا».

إن تأثير العوامل النفسية على الناحية الجسمية العضوية أمر بدهي يلاحظه الفرد فى حياته اليومية .فهو يضطرب وتزداد ضربات قلبه عند تلقيه أخباراً مفزعة أو مؤلمة ، أو عند تذكره لخبرات مشابهة ، كما يحمر وجهه خجلاً وحياء إن كان من أصحاب البشرة البيضاء . على أن هذه التغيُّرات العضوية البسيطة قد لا تقنع الكثيرين بالدور الخطير الذى تلعبه النواحى المعرفية فى تشكيل فسيولوجية الإنسان .

لكن الأدلة الأكثر « درامية » وإقناعا هى تلك الظواهر الفسيولوجية المعقدة التي تحدث نتيجة لتأثير الفكر والانفعال على الجسم ، منها ظاهرة الحمل الكاذب (Pseudocyesis) التي تعتقد فيها المرأة العاقر بأنها حامل ، فتتوقف لديها العادة الشهرية وتنتفخ البطن بنسبة مشابهة تماما للحمل الطبيعي ويتضخم حجم الثديين وتنشط الغدد التي تفرز اللبن ، بل إن بعض السيدات – كما يقول الطبيب (Benson)[٣١] – كن يشعرن بتحركات الجنين في أرحامهن خلال الشهر الرابع والخامس للحمل المزعوم ! وما أن تكتشف المرأة أن حملها « نفسي » ، حتى تختفي جميع هذه التغيرات الفسيولوجية بسرعة مذهلة .

ومن أهم الظواهر أيضا تحسن الحالة الصحية الجسمية لكثير من المرضى عند تناولهم لحبوب وكبسولات لا تحتوي على أي مادة فعالة ، لكنهم يعتقدون بأنها عقاقير مفيدة (Placebo Effect). فقد لا تحتوي الكبسولات إلا على قليل من السكر لكن الطبيب يؤكد للمرضى بأنها ذات فائدة مضمونة . وفي بعض الحالات يقوم الطبيب بحقن المرضى بمحلول الماء والملح بعد إيهامهم بأن هذه الحقن تحتوي على دواء ممتاز . وقد أثبتت الدراسات المتكررة بأن هؤلاء المرضى تتحسن حالتهم بدرجة واضحة تكاد في بعض الأحيان أن تصل إلى مستوى أولئك الذين تلقوا عقاقير حقيقية[٣٢] .

---

(٣١) H. Benson, Beyond the Relaxation Response, Berkley Books, N.Y., 1985.

(٣٢) Benson, Ibid.

وقد اهتم العلماء في الآونة الأخيرة بهذا الموضوع ، خصوصا بعد أن ثبت بأن النشاط المعرفي والانفعالي للإنسان له تأثير مباشر على مقاومته الطبيعية للأمراض الجسمية (Immune System).

فقد اتضح الآن من مئات التجارب والأبحاث أن الضغوط النفسية المزمنة المصاحبة للحزن والاكتئاب والقلق والإحساس بالوحدة القاتلة والاستيحاش وفقدان الثقة بالنفس ، تؤثر تأثيرا بالغا على مقاومة الإنسان للأمراض الجرثومية وحتى للسرطان . فهذا الضغط النفسي المزمن يجعل الغدد الكظرية (Adrenal Glands) تزيد من إفرازها للهرمونات المحتوية على مادة الكورتزون التي تكف من نشاط المقاومة الطبيعية . وقد كان من تأثير هذه الأبحاث أن ظهر تخصص جديد هو « علم المقاومة النفسية والعصبية » (Psychoneuro-Immunology) الذي يجمع بين الإخصائيين في ميدانين مختلفين لم يكن بينهما مثل هذا التعاون في الماضي ، ألا وهما ميدان العلوم الاجتماعية وعلم النفس وميدان دراسة كيمياء جهاز المقاومة في الإنسان . كما ظهرت مئات المؤلفات التي تدعو لتحسين صحة الإنسان الجسمية بتغيير أفكاره ومشاعره وانفعالاته ، حتى وصف بعض العلماء هذه الظاهرة « بالثورة الثالثة »[٣٣] في الطب الغربي الحديث التي كانت أولاها تطور الجراحة وثانيها اكتشاف البنسلين والمضادات الحيوية . ذلك لأن الذي يشكل فكر الإنسان ونشاطه المعرفي ليس هو الأحداث والمثيرات التي يتعرض لها في بيئته بشكل مباشر ، بل الذي يؤثر بالفعل هو تقييمه وتصوراته لهذه الأحداث والمثيرات . فقد أثر عن فيلسوف روماني في القرن الميلادي الأول أنه قال « ليست الأشياء المحيطة بالإنسان هي التي تزعجه بل أفكاره عن هذه الأشياء »[٣٤] .

إذن فليس « العقل السليم في الجسم السليم » فحسب – كما يؤكد المثل المشهور – بل كذلك فإن « الجسم السليم في العقل السليم » .

---

(٣٣) Newsweek, Nov.7, 1988 .

(٣٤) H. Benson, op. cit.

كيف يساعد التأمل وما يصاحبه من استرخاء في علاج الاضطرابات الجسمية والنفسية ؟

إن الإرشادات التي يطلب الطبيب أو المعالج من المريض تنفيذها تبدو بسيطة ساذجة ولكن نتائجها سريعة المفعول ، عرفها الهنود والبوذيون واستخدموها منذ آلاف السنين . وقد أثبتت مئات الأبحاث والتجارب الحديثة التي أجريت في العيادات والمختبرات الطبية التي تستخدم أرقى أساليب قياس التغيرات الفسيولوجية النفسية أن هذا « التأمل الارتقائي » الذي يعتبر أحد أساليب التأمل التركيزي (Concentrative Meditation) هو ثورة طبية حقيقية يستخدم فيها الإنسان قدراته الذهنية والمعرفية والروحية في شفاء نفسه بنفسه ، بالإضافة إلى إثراء حياته النفسية !

أنقل إلى القارئ هذه الإرشادات البسيطة من أكثر الكتب انتشارا في الولايات المتحدة ، والذي أصبح مؤلفه الطبيب (Benson)[٣٥] من أشهر الباحثين في ميدان التأمل والاسترخاء والاستفادة من أساليب التفكر الباطني لليوغا والديانات الشرقية .

يطلب بينسون من المريض أن يجلس جلسة مريحة في مكان هادئ باسترخاء جسمي شامل ويغمض عينيه ويتنفس بعمق وهدوء ، مركزا ذهنه في عملية التنفس هذه ، كما يطلب منه أن يختار كلمة أو جملة قصيرة من مفاهيمه الإيمانية أو الدينية ويرددها متفكرا في معانيها بشكل رتيب كل ما أخرج الهواء من رئتيه . وإذا فضل المريض أن يختار معنى أو شكلا يتصوره بدلا من كلمة يرددها فعليه أن يتمثل هذا التصور بذات الأسلوب المتكرر الرتيب .

عندما بدأ الأمريكيون اهتمامهم بالتأمل الارتقائي في العلاج ، نقلوه بحذافيره من التقاليد الهندية القديمة ، فكانوا يطلبون من المتأمل أن يردد كلمة لا معنى لها ، أو كلمة لها معنى هندي أو شرقي قديم (Mantra) لا يعرفه الأمريكي

(٣٥) Ibid.

المتأمل، لكنهم وجدوا بعد ذلك أن ترديد عبارات لها معنى وقيمة عقيدية أو دينية لدى الشخص المتأمل أو تفكره في صورة ذهنية لإحدى مفاهيمه الإيمانية ، له أثر كبير في تعميق تأمله وسرعة علاجه .

ويرى الدارسون لظاهرة « التأمل الارتقائيّ » أن تركيز الذهن مع الترديد المستمر لمعنى إيماني أو لصورة ذهنية لها قيمتها الكبيرة لدى الشخص المتفكر ، سيؤدي به حتما إلى تصور أعمق ومفاهيم جديدة عن الشيء موضع التفكر والتأمل ، ويرتقي به إلى أفق أرفع من المعاني والتصورات التي لم يكن ليدركها بسبب الحياة العادية والألفة القاتلة والإدراك الحسي الروتيني المحدود . ومن ثم كانت تسمية « التأمل الارتقائيّ » .

ومن الإرشادات الهامة التي يجب على المتأمل اتباعها هي إهماله للأفكار والخواطر التي لاتفتأ « تحشر نفسها » في ذهنه لتمنعه من التركيز فيما يتأمل فيه ، ويجب عليه أن يعود لتركيز ذهنه مرة أخرى فيما اختاره لموضوع تفكره وتأمله ، وأن يتخذ في جلسته التأملية أسلوبا « سلبيا » استرخائيا حتى يدرب نفسه مع مرور الأيام على هذا التمرين ، فيزداد تفكره وتأمله عمقا وجسمه استرخاء وتخف وطأة الخواطر المرضية والأفكار الجانبية ، ويختفي معها التوتر والقلق والأعراض الجسمية التي كان يشكو منها . وقد وجد كثير جدا من الباحثين ومنهم بينسون ، أن الشخص الذي يقوم بهذا التأمل مرتين في اليوم – صباحا ومساء – ولمدة ربع ساعة أو عشرين دقيقة للجلسة الواحدة ، سيشعر بتحسن كبير بالنسبة لأعراضه الجسمية ويصبح أكثر تفاؤلا وقدرة على الإنتاج والتفكير الخلاق !

ويمكن تأكيد هذا التحسن بالقياسات الفسيولوجية الدقيقة كانخفاض ضغط الدم ونسبة الكولسترول فيه ، مما يدعو الأطباء لتخفيض جرع الدواء أو إيقافه بالمرة لمرضى مزمنين كانوا يتناولون هذا العلاج الكيميائيّ قبل ممارسة التأمل الارتقائيّ لسنوات طويلة . وفي هذا المجال يذكر الدكتور بينسون[٣٦] أن نسبة

---

(٣٦) Ibid.

الكولسترول في دم المرضى الذين مارسوا الاسترخاء مع التأمل المرتبط بالعامل الإيماني (Faith Factor) قد انخفض بنسبة ٣٥٪ بالمقارنة بمجموعة مشابهة من المرضى الذين لم يمارسوا العلاج بالتأمل . كذلك لاحظ الباحثون أن سرعة ضربات القلب تنخفض انخفاضا واضحا قد يصل إلى ثلاث ضربات في الدقيقة الواحدة ، كما تقل نسبة استهلاك الأوكسجين واحتراق السكر في الجسم . وتزداد نسبة موجات « الالفاء » التي يسجلها جهاز تخطيط الدماغ . وهذه الموجات لها صلة بحالة السكينة والهدوء الذي يصاحب التأمل العميق .

ومن القياسات الفسيولوجية الهامة ازدياد مقاومة الجلد للتيار الكهربائي الضعيف، إذ أن مقاومة الجلد للتيار الكهربائي الضعيف ـــ الذي لا يشعر به المفحوص ـــ هي من أهم المؤشرات للهدوء النفسي؛ حيث إن مقاومة التيار تزداد انخفاضا مع ازدياد كمية العرق والرطوبة في كفي الإنسان وتزداد هذه المقاومة مع نقص العرق والرطوبة فيهما. وكما هو معلوم فإن ازدياد العرق هو مؤشر واضح للتوتر والقلق. ويمكن قياس أي زيادة أو نقص في رطوبة الكف بدقة متناهية عن طريق قطبين يثبتان في كف المفحوص تنقل التيار إلى جهاز خاص.

وذكر Le Shan[٣٧] في كتابه المشهور « كيف تتأمل ؟ » (How to Meditate) الذي أعيدت طباعته أكثر من عشرين مرة ، أن التأمل والتفكر الارتقائي يزيد من مقاومة الجلد للتيار بدرجة قد تصل إلى ٤٠٠ ٪ ويؤكد Le Shan أن الحالة النفسية للتأمل العميق هى حالة من السكينة مضادة تماما للقلق والغضب .

هذا بعض ما تسجله الأجهزة الطبية والنفسية الدقيقة ، أما الأحاسيس الذاتية التي يؤكدها المتأملون من المرضى فأمر أكثر درامية ، حيث تختفي آلام الصداع والاضطرابات الهضمية المزمنة وآلام الصدر وغيرها من الأعراض السيكوفسيولوجية ، كما يزول الأرق والتوتر والقلق ويشعر المريض بقدر كبير من

---

(٣٧) L . Le Shan, How to Meditate, Bantam Books, London, 1988 .

التفاؤل والسكينة . وحتى إذا لم تختف الأعراض الجسمية بشكل كامل ، فإنها تتحسن بقدر ملحوظ ، ويصبح المريض بشكل عام أقل اهتماما بها وبمضاعفاتها .

ومن التغيرات النفسية الهامة التي يؤكدها المتأملون من المرضى والأشخاص العاديين ، ذلك الإحساس بالسكينة والوصول إلى مستوى راق من المعرفة الذاتية وإلى إحساس غامر بصلة الفرد الحميمة بكل الموجودات في هذا الكون ، وبعاطفة جياشة للناس وبتفاؤل عظيم وقدرة متنامية على الإنتاج والتفكير الخلاق .

ويصف كثير من المتأملين هذا الإحساس بأنه كشعور المرء المغترب عندما يصل إلى أهله وبيته .

ويؤكد **Le Shan** بأن هذا الإحساس الغامض لما وراء العالم المادي الملموس ليس أمرا متوهما ولا إيحاء ذاتيا بل هو حقيقة يثبتها التشابه المذهل بين الخبرات الروحية التي يسجلها النساك والعباد في شتى أنحاء العالم . فهم – كما يقول – يصلون إلى مراتب من المعرفة لا تستطيع أن تنقلها الكلمات التي يستخدمونها في لغاتهم القومية ، لكن التشابه الكبير بين خبراتهم رغم ذلك يدعو المرء إلى قبول مصداقيتهم . ويفسر **Le Shan** التناقض بين هذه المعرفة الارتقائية الجديدة وبين ما اعتاده الفرد في حياته المادية العادية من مفاهيم – رغم حقيقة وجود كلتا المعرفتين – بما توصل إليه علم الفيزياء الحديث ، من أن نفس الظاهرة يمكن تفسيرها بتصورين متناقضين رغم صحة كل تصور على حدة في تفسير بعض الحقائق **(Princple of Complementarity)** ، ويذكرنا **Le Shan** في هذا الشأن بأن علم الفيزياء اضطر إلى تغيير تصوره عن حقيقة الكون بعد فشل الفيزياء الكلاسيكية في تفسير بعض الظواهر الكونية ، وجاء أينشتاين وبدل المفاهيم بنظرية النسبية العامة والخاصة فأصبح الزمن بعدا رابعا والكتلة صورة مركزة للطاقة ، فانقلبت الموازين واختلف التصور الكوني . فإن كان هذا يحدث على المستوى المادي في المعرفة فلا يستغرب الباحث – كما يؤكد **Le Shan** – أن تكون هناك معرفة أرقى للكون والحياة يصلها الإنسان عن طريق التأمل .

لخصنا هذه الصفحات في هذا الفصل لنبين أثر الفكر والانفعال والعاطفة على الصحة الجسمية ، وكيف يمكن للإنسان أن « يصيب نفسه » بشتى الأمراض السيكوفسيولوجية أو يضعف مناعته حتى يصبح فريسه للإصابة الجرثومية إذا اعتل فيه الجانب المعرفي وتمارض حتى يمرض بالفعل. كما وضحنا أثر العوامل المعرفية من مشاعر وانفعالات وتفكير في علاج مثل هذه الحالات المرضية وركزنا على «التأمل الارتقائي» في الغرب بصفته أهم الأساليب النفسية التي أثبتت فائدتها في هذا الميدان العلاجي ولصلته الواضحة بموضوع التفكر.

إن المؤمن المتأمل لهذا النوع من العلاج التأملي لايجد كبير عناء في ملاحظة التشابه الظاهري الكبير بينه وبين التفكر في خلق السموات والأرض وما يصاحبه من تسبيح وذكر لله تعالى . فهما يشتركان في تركيز الذهن في موضوع التأمل وفي التخلص أو التخفيف من المشوشات الخارجية والداخلية ، أي ما يصرف الذهن عن التفكر من صخب في الخارج وخواطر وأفكار عارضة من داخل النفس . ويتفقان أيضا في إعادة النظر وترديد المعاني التأملية بإيقاع متكرر حتى يظهر للمتفكر المسبح وللمتأمل في كل مرة معنى جديد وإدراك مبتكر وتصور لم يخطر على البال . فكلاهما يستخدم التفكر العميق ليحرر الإدراك الحسي الجامد من سجن الروتين اليومي للحياة المادية وقمقم الألفة وزنزانة الاعتياد حتى ينطلق إلى آفاق أرحب ومعرفة أوسع .

بل إن المسلم الدارس لإرشادات المعالجين في كتب « التأمل الارتقائي » و« الاسترخاء مع الاستفادة من العامل الإيماني » التي ملأت أسواق الكتب والأشرطة التعليمية في أوروبا وأمريكا ، لا تخطر بباله وهو يدرسها إلا تلك الصورة الحية لمؤمن يجلس القرفصاء بعد أداء الصلاة وهو مستغرق في التفكر في آلاء الله وعظمته ودقة صنعه ، مرددا عبارات التسبيح والتحميد والتكبير . ومن الطريف أن نذكر ونحن نتحدث عن هذا التشابه الظاهري أن الدكتور بينسون – في كتابه الذي أشرنا إليه سالفا – يختار بنفسه الكلمات والعبارات

« الإسلامية » التي تصلح للترديد بالنسبة للمؤمن الذي يمارس التأمل الارتقائي والاسترخاء ! فيقول في صفحة ١٠٩ ما ترجمته :

« ... ويمكن للمسلم أن يختار لتأمله ترديد كلمة « الله .. الله » ... أو كلمة « أحد ... أحد » – التي يذكر بينسون أن بلالاً كان يرددها وهو يتلقى العذاب صابرا من سيده[٣٨] – لكنه كتب تنوين كلمة « أحد » بالانجليزية بالميم (Ahadum)!

ولعل المتأمل في « التأمل الارتقائي » وأصوله في الديانات الشرقية القديمة والتشابهة الظاهري بينه وبين التفكر والتسبيح – يرجح صواب نظرية الأستاذ أبو الأعلى المودودي[٣٩] بأن البوذية والهندوكية كانتا في الماضي من الديانات الصحيحة التي طمست معالمها فلم يبق منها إلا عقائد منحرفة وممارسات تعبدية تمسكت بالشعائر المفيدة الظاهرة كالتأمل ، وتركت الغاية الحقيقية ، ألا وهي توجيه هذا التأمل لعبادة الله وتسبيحه والتفكر في مخلوقاته . ونقل العالم الغربي عنهما هذه الممارسات المبتورة بعد أن ثبتت فوائدها الطبية .

وقد ذكرنا أن جميع الشعائر والعبادات الإسلامية وكل ما أمر به الشرع أو نهى عنه له فائدة للإنسان في دنياه قبل آخرته ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

ويبدو لنا أن تركيز الذهن والتأمل الجاد في موضوع روحي أو قيمي معين – بغض النظر عن صحته أو عدمها – مع ترديد ألفاظه ومعانيه والاستغراق في حالة استرخائية هادئة ، يخلص الإنسان فيها نفسه من الخواطر والمشاغل اليومية ويحاول الخلود إلى إيقاعات ما وراء المادة واستشفاف ماوراء الحس – له فائدة عظيمة بالنسبة لحالته النفسية والجسمية .

---

(٣٨) Benson, op. cit. p. 109.

(٣٩) أبو الأعلى المودودي: «مبادئ الإسلام»، دار القرآن الكريم، دمشق، ١٩٧٧.

بل إن الإنسان ليستفيد هذه الفائدة بتركيز ذهنه على المثيرات الطبيعية في بيئته ، كشقشقة العصافير وأصوات الأشجار الباسقة تداعبها الرياح الهادئة ، أو حتى التركيز في إيقاعاته الجسمية الداخلية الرتيبة كتنفسه وضربات قلبه . (Mindfulness Meditation)

هذه الفوائد التي يجدها غير المسلم الذي يمارس التأمل الارتقائي أو أي نوع آخر من أنواع التأمل هي كالتي يجدها إذا واظب على السواك والاغتسال ونظافة الجسم وتقليم الأظافر والرياضة البدنية الخفيفة ، وإذا امتنع عن شرب الخمر وتناول المخدرات والزنا والإسراف في الطعام ، كلها أمور مفيدة للمرء في دنياه وضعها الحق تبارك وتعالى في شرعه وشعائره وسنة نبيه ﷺ ، أو هي في بعض الأحيان أمور غريزية جبلت في جذر القلوب يسكن إليها الإنسان مع اختلاف الأجناس والبيئات كما يسكن للماء الجاري والخضرة النضرة والوجه الحسن !

فالمؤمن المتفكر إذن يجد كل هذه الفوائد الصحية – الجسمية منها والنفسية – التي يلقاها الممارس «للتأمل الارتقائي»، بل ويزيد عليها أضعافًا بسبب صحة عقيدته وبساطتها ونفاذ بصيرته ووضوح رؤيته الدينية ، وتدريبه المستمر على التأمل والتفكر في صلاته وتسبيحه منذ نعومة أظفاره .

بل إنه قد يصل إلى هذه الفوائد بأقل جهد وأقصر وقت . فقد أثبت الدكتور القاضي[٤٠] بعد سلسلة من التجارب الدقيقة التي أجراها في «عيادات أكبر» في فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية أن مجرد استماع المسلم لآيات من القرآن الكريم – سواء كان من المتحدثين باللغة العربية أو بغيرها – يأتي بجميع التغيرات الفسيولوجية الدالة على خفض التوتر والقلق ونزول السكينة وزيادة المناعة ضد الأمراض وغيرها من التغيرات التي فصلناها من قبل كنتائج باهرة لممارسة « التأمل

---

(٤٠) أحمد القاضي: «تأثير القرآن على وظائف الجسم البشري وقياسه بواسطة أجهزة المراقبة الإلكترونية، عيادات أكبر، باناما سيتي، فلوريدا، ١٩٨٤م.

الارتقائي » . وأثبتت هذه التجارب التي استخدم فيها الدكتور القاضي أحدث أجهزة المراقبة الالكترونية لضغط الدم وسرعة ضربات القلب وقوة شد العضلات ومقاومة الجلد للتيار الكهربائي ، أن لتلاوة القرآن أثراً مهدئاً واضحاً في ٩٧ ٪ من الحالات .

إذن فالفوائد الحقيقية للتأمل تأتي بربطه بعبادة الله وحسن الصلة به تعالى ، وكل ما ذكرناه من تشابه ظاهري بين التفكر كعبادة إسلامية و« التأمل الارتقائي » كعلاج نفسي وجسمي ما هو إلا في الصورة الخارجية وفي القشور . أما اللب الحقيقي فهو في العبور من التأمل في المخلوقات إلى خالقها. وفي التوحيد الخالص لرب العالمين الذي لا تشوبه شائبة من شرك أو عقيدة فاسدة. ومثل التفكر الإسلامي و «التأمل الإرتقائي» بغير عقيدة سليمة وتصور صحيح للكون والحياة كمثل محارتين متشابهتين في شكلهما الخارجي ، جاء بهما غواص من قاع البحر إحداهما تحمل في أحشائها اللؤلؤ النادر ولا تحمل الأخرى غير بقايا حيوان بحري صغير لا يسمن ولا يغني من جوع !

فالإحساس المبهم بالسعادة والاستقرار النفسي وصفاء الذهن والشعور الغامر بصلة المتأمل غير المسلم الحميمة بكل الموجودات في هذا الكون ، وكأنه مغترب رجع إلى أهله ، هو إحساس حقيقي يزكيه البصيص الخافت الذي يجده في التأمل وفي الاسترواح إلى القيم غير المادية التي يتفكر فيها ، وربما لأول مرة في حياته ، فَيَرى في ذلك نقلة عظيمة بالمقارنة لحياته اليومية المظلمة.. هذا الإحساس رغم تأثيره على المتأمل غير المسلم ما هو في الحقيقة إلا قطرة من البحر الزاخر الذي يحسه المؤمن المتفكر المسبح لله وهو يعلم ابتداء – علما يقينيا – بأن كل ذرة من ذرات هذا الكون تسبح الله وتقدسه ... ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾(الإسراء: ٤٤).

فالمؤمن المتفكر ، وإن لم يفقه تسبيح الكون ، لكنه يحسه إحساسا لا يتطرق إليه الشك ويشعر بتلاحم وتناغم تسبيحه مع تسبيح كل المخلوقات ، ويزداد هذا

الإحساس عمقا مع مداومة الفكر حتى يصل إلى قمم روحية سامية وإلى شعور بالسرور واللذة الروحية التي لا يشبهها من نعيم هذه الدنيا شيء ، ولا تخطر ببال أولئك الذين يمارسون « التأمل الارتقائي » والرياضة الروحية البوذية والهندية أو حتى أولئك الذين يدربون الناس على هذه الرياضات التأملية .

فيتحدث ابن القيم عن هذا النعيم الذي تنقشع فيه هموم الدنيا وأمراضها وأعراضها كما يقشع النور الظلام بقوله: «إن المؤمن المتفكر الذاكر يفتح له باب الإنس بالخلوة والوحدة في الأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات ... فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته . وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشتت قلبه ... ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها . ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب ، ونيل الشهوات ... فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيرا من هموم الدنيا وما فيها . فهو في وجود والناس في وجود آخر ... »[٤١] .

ولنستمع إلى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية يحدثنا عن بعض الشيوخ من أهل الذكر والتفكر فيقول عن أحدهم :

« ... لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال ، إنهم لفي عيش طيب . وقال آخر : إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طربا . وقال الآخر : لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم »[٤٢] .

فشتان ما بين الذين يعيشون الشقاء في ظلمات مادية بعضها فوق بعض ، يفتح عليهم التأمل والاستشراف لما وراء الحس بصيصا من نور خافت مبهم ... ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ (البقرة: ٢٠)، وبين أولئك الذين جعل الله لهم نورًا يمشون به في الناس.

---

(٤١) «تهذيب مدارج السالكين»، صفحة ٣١ــ٣٢.

(٤٢) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية » : المجلد العاشر ، صفحة ٦٤٧ .

(٤)

بعض الأساليب القرآنية
في الحض على التفكر

إذا كان التفكر في مخلوقات الله من أعظم العبادات التي دعا إليها الإسلام ، فلا عجب أن نرى القرآن الكريم يحمل بين دفتيه الكريمتين الكثير من الآيات التي تحض على التدبر في خلق السموات والأرض بشتى الأساليب التي تناسب كل مزاج وحالة روحية ، حتى لاتترك وسيلة تصل بها إلى كل من في قلبه بقية من حياة إلا سلكتها . ذلك لتخرج الناس من بلادة الحس وهمود العادة ورتابة المألوف ، ليروا آيات ربهم في السموات والأرض ببصيرة حية وقلب شفاف .

فيستجيش القرآن في كثير من آياته القلوب ، بتذكيرها بآلاء الله ونعمه فيكون التفكر والعبرة من خلال الجو الحاني من صفات الرحمة الودودة :

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ‌. وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ (النحل: ٦٥ــ٦٦).

وتارة ينقلب الخطاب عنيفا مقرونا في بعض الأحيان بالتهديد والوعيد ، وهذه هي الآيات الموجهة لذوي القلوب القاسية الكافرة التي تحتاج لمثل هذا الأسلوب الصارم . وكثير من هذه الآيات يبدأ بالسؤال الاستنكاري **﴿ أولم يروا .. ﴾** ❊ **أفلا ينظرون** ❊ .

﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ

نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب * ﴾ (سبأ: ٩).

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت * ﴾ (الغاشية: ١٧ــ٢٠).

﴿ أولم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

كما يأتي كثير من مثل هذه الآيات في ثنايا القصص القرآني وعلى لسان الأنبياء ، فعلى لسان نوح إلى كفار قومه يقول الحق جل وعلا :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * ﴾ (نوح: ١٣ــ١٦).

وفي المقابل نجد طائفة ثالثة من الآيات يأتي الحض على التفكر فيها في صورة الثناء الودود على أولى الألباب ، الذين لا يرون في الوجود شيئا إلا وكان لهم فيه عبرة وتذكرة بالله ونعمه التي لا تحصى . فهؤلاء يذكرون الله في كل حالة من أحوالهم النفسية وفي كل وضع من أوضاعهم الجسمية :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (آل عمران: ١٩٠ــ١٩١).

كذلك يلفت القرآن النظر إلى تدبر آيات الله في الكون باستجاشة الناحية الجمالية الفطرية في الإنسان . ففي الآيات التاليات من سورة فاطر يلفت القرآن الكريم النظر بطريقة تهز المشاعر ، لجمال الألوان والأصباغ المختلفة الظلال في الأرض وما فيها من جمادات ونباتات وحيوانات وبشر :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ (فاطر: ٢٧ــ٢٨).

ونجد كذلك أن الله تعالى بعدما يمتن على العباد بخلق الأنعام ليأكلوا وينتفعوا منها يقول أيضا :

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ (النحل: ٥ــ٦).

ويقول :

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ﴾ (السجدة: ٧).

ويعلق الأستاذ الشهيد سيد قطب بما فتح الله عليه في ظلاله في تفسير آية **﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ... ﴾** بما يلي :

« إن هذا الوجود جميل . وإن جماله لا ينفد . وإن الإنسان ليرتقي في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ماحدود ، قدر ما يريد ، وفق ما يريده له مبدع الوجود . وإن عنصر الجمال لمقصود قصدا في هذا الوجود . فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة في كل شيء ، يصل إلى حد الجمال . وكمال التكوين يتجلى في صورة جميلة في كل عضو ، وفي كل خلق .. انظر هذه النحلة . هذه الزهرة . هذه النجمة . هذا الليل . هذا الصبح . هذه الظلال . هذه السحب . هذه الموسيقى السارية في الوجود كله . هذا التناسق الذي لاعوج فيه ولا فطور !

إنها رحلة ممتعة في هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين ، يلفتنا القرآن إليها لنتملاها ،ونستمتع بها وهو يقول: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾** ...

فيوقظ القلب ليتتبع مواضع الحسن والجمال في هذا الوجود الكبير »[٤٣]

---

(٤٣) سيد قطب : « في ظلال القرآن » ، الجزء الخامس ، دار الشروق ، الطبعة الخامسة ، صفحة ٢٨٠٩ .

على أن أهم ما يرفع من قدر التفكر أن الله تبارك وتعالى قد أقسم بذاته العظيمة ببعض من مخلوقاته . فهذه أكبر دعوة إلى النظر فيها وسبر أغوارها والتدبر في مكوناتها ، فالله يقسم بالضحى وبالفجر ، ويقسم بالشفق والقمر ، ويقسم بالتين والزيتون ، ويقسم بالصبح إذا تنفس وبالليل إذا سجى .

ولا شك أن هذه المكانة العالية التي أعطاها الإسلام لعبادة التفكر هي التي جعلت علماء وزهادا من أمثال الحسن البصري يقول (تفكر ساعة خير من قيام ليلة)[٤٤] وأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ليقرر بأن : « الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة »[٤٥] .

الإسلام يحض الإنسان على التفكر في نفسه :

إن جهل الإنسان بنفسه وإهماله التدبر في أمرها ودراستها يعتبر من منطلق إسلامي إهمالا كبيرا ونسيانا لواحد من أعظم آيات الله في الكون . فإذا كان الإسلام يحث على التفكر في السماء والبحار والجبال والأنهار ويدعو إلى تدبر ما صنعته يد الإنسان من مخترعات تنفع الناس وتيسر لهم خشن الحياة ، فما بالك بتفكر الإنسان في خلق الإنسان ... الإنسان الذي أسجد الله له ملائكته وسخر له ما في السموات والأرض :

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ﴾ (الجاثية: ١٣).

من أجل ذلك ، فإن القرآن الكريم ، مع ما فيه من آيات عامة كثيرة تحض على تدبر خلق السموات والأرض ، التي يعتبر الإنسان أهم مخلوق فيها ، فإنه يفرده فوق ذلك بنصوص كثيرة خاصة به ، وكما ذكرنا من قبل فإن القرآن العظيم

---

(٤٤) الحافظ ابن كثير : « تفسير القرآن العظيم » ، المجلد الأول ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٦٩ م صفحة ٤٣٨ .

(٤٥) المصدر السابق .

يستخدم كل وسيلة ليوقظ القلوب من همود الحس ورتابة المألوف ، لترى آيات ربها في السموات والأرض بقلوب حية وبصيرة مستنيرة . كذلك ، نجد في موضوع الإنسان ، أن آيات الكتاب تتبع نفس الأساليب التي تناسب كل قلب وتوائم كل حالة نفسية .

فمن ناحية تفصيل خلق الإنسان وربط ذلك بكرم الله عليه ومنّه ورحمته يقول الحق تبارك وتعالى في آيات « سورة المؤمنون » المفصلة المعجزة :

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين *** ﴾ (المؤمنون: ١٢ــ١٤).

ويقول في موضع آخر :

﴿ **قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون *** ﴾ (الملك: ٢٣) .

أما غلاظ القلوب والمستكبرون فيوجه القرآن لهم نفس الأسئلة الاستنكارية التي قدمنا أمثلة منها من قبل :

﴿ **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين *** ﴾ (يس: ٧٧).

﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين *** ﴾ (المرسلات: ٢٠ــ٢٤).

أما في استجاشة الناحية الجمالية في الفطرة الإنسانية فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ (التين: ٤).

ويقول :

﴿ **خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير *** ﴾ (التغابن: ٣).

وكما أقسم الرحمن عز وجل ببعض آياته الكونية ومخلوقاته في الأرض كالضحى والليل والشمس والتين والزيتون فاعتبرنا ذلك أعظم دعاية للتفكر فيها ، كذلك أقسم الحق تبارك وتعالى بالنفس الإنسانية ، مرة في ثنايا آياته الكونية وأخرى مقرونة بيوم القيامة ، فرفع من قدرها أيما رفعة . ففي مطلع سورة القيامة يأتي هذا القسم الجليل من فاطر النفس الإنسانية ومالك يوم الدين :

﴿ لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه * ﴾ (القيامة: ١ــ٤).

وفي سورة « الشمس » يأتي القسم الإلهي بتسوية النفس الإنسانية وإلهامها بعد جولة سريعة خاطفة في الكون ، يقسم فيها الحق جل وعلا بالشمس والقمر والنهار والليل وبناء السماء وطحو الأرض :

﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها * ﴾(الشمس: ٧ــ١٠).

كذلك أقسم الحق تبارك وتعالى بجوانب أخرى تخص الإنسان . ففي سورة قصيرة وافية شاملة أقسم عز وجل بالفترة الزمنية التي يقضيها الإنسان على وجه الأرض[٤٦] والتي ، رغم قصرها ، يرفع الإنسان بعد انقضائها إلى عليين أو يحط في سجين :

﴿ والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر * ﴾ (العصر: ١ــ٣).

كما أقسم الله بذاته الكريمة على صدق القرآن ، ممثلا ذلك بإحدى أهم خصائص الإنسان : ألا وهي قدرته على النطق والكلام :

﴿ فورب السماء والأرض إنه لَحَقٌّ مثل ما أنكم تنطقون * ﴾ الذاريات: ٢٣).

---

(٤٦) المصدر السابق، الجزء الرابع، صفحة ٥٤٧.

هذه إذن بعض الأمثلة القرآنية التي تحض الإنسان على التفكر في نفسه ، وفي الحقيقة أنه لو لم يكن في الوجود شيء يدل على روعة خلق الله وإعجازه في الكون سوى الإنسان لكفاه عظة وعبرة ولظل عنقه لله خاضعًا. فما حقيقة النفس الإنسانية وما الروح وما العقل ؟ كلها مخلوقات لا يستطيع العقل البشري إدراكها والإحاطة بها ، فهي وإن كانت من مكونات الإنسان التي بها صار إنسانا ، إلا أنها ليست مادية ولا يمكن حصرها بين فكي الزمان والمكان اللذين لا قدرة للعقل البشري على الإدراك خارج نطاقهما . فهذا في حد ذاته أكبر تحد يدعو الإنسان للتواضع والإذعان : أن يعجز عن إدراك بعض مكونات نفسه والإحاطة بها .

وحتى العوامل السيكولوجية (السلوكية) الأكثر بساطة والتي يمكن ملاحظة آثارها في المختبر كالتعلم والتذكر والانفعال والدوافع ما زال علم النفس وهو يدرسها يخطو على شواطئ بحرها اللانهائي ، كطفل يلهو على ساحل محيط .

بل حتى النواحي المادية البيولوجية الملموسَة ، لو قضى البشر بقضهم وقضيضهم ، كل حياتهم يتدبرون ويدرسون آيات الله في جسم الإنسان لما تعرفوا إلا على قدر تافه منها . وكما ذكرنا من قبل فإن الدماغ البشري ما زال أكثر شيء غموضا في كون الله الواسع على الرغم مما وصل إليه إنسان العصر الحاضر . وعليه فستبقى آية الله القرآنية :

﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** * ﴾ (الذاريات: ٢١) .

ستبقى جديدة متحدية كيوم أنزلت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولعله من المفيد أن ننقل للقارئ بعض خواطر الأستاذ سيد قطب حول هذه الآية :

« ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟** ﴾ هذا الإنسان هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض ولكنه يغفل عن قيمته وعن أسراره الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني : في أسرار هذا الجسد ، في تكوينه الروحي : في أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه وهو يمثل عناصر هذا الكون .

وتزعــم أنك جـــرم صغير وفيك انطوى العـالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير: تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف.. وأسرار روحه طاقتها المعلومة والمجهولة.. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها، هذه الصور المختزنة. أين؟ وكيف؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تستدعى فتجيء وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى . فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر..

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص ، وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين ، فأين تكمن تلك الخصائص في تلك الخلية الصغيرة ؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل ، فتمثله أدق تمثيل ، تنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب ؟ »[٤٧].

---

(٤٧) في ظلال القرآن: الجزء السادس، صفحة ٣٢٧٩ ــ ٣٢٨٠.

(٥)

التفكر عبادة حرة طليقة

التفكر في خلق السموات والأرض وما يقع عليها من أحداث ، أمر لا يحده عائق من اختلاف الزمان ولا المكان ولا ماهية الأشياء . هى عبادة حرة طليقة حرية الإدراك وانطلاق الخيال المؤمن . سياحة فكرية وجدانية تحيي القلوب وتنير البصائر عندما يعبر الذهن من آيات الله في الكون إلى خالقها ومدبرها ، وهذا هو المعنى الحقيقي للاعتبار .

فمن ناحية تحرر التفكر من قيد الزمان والمكان فإن القرآن الكريم يحض عليه ابتداء من بداية الخلق :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير * ﴾ (العنكبوت: ٢٠) .

وكما يحض المؤمنين على التفكر في حاضرهم ، يذكرهم أيضا بتدبر مصائر الأمم الغابرة التي طواها الزمن وحصد ديارها :

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ (الروم: ٩) .

وكما يأمرهم بالتدبر في الدنيا يدعوهم كذلك إلى التفكر في الآخرة :

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة ﴾ (البقرة: ٢١٩ــ٢٢٠) .

ذلك بأن التفكر المحدود بالدنيا الفانية لا يكون إلا تَصوّرًا مبتوراً للكون ومفهوماً مشوهاً لحقيقة الوجود الإنساني .

إذن فالمؤمن مأمور بالتدبر فى خلق الله ، ابتداء من بداية الخلق إلى الآخرة ...

أما بالنسبة لحرية التدبر ، بغض النظر عن ماهية الأشياء ، نجد القرآن العظيم كما يدعو إلى النظر فى مخلوقات الله الطبيعية التى لم تمتد إليها يد البشر كالسموات والجبال والبحار ، يلفت أنظار المؤمنين كذلك إلى ما أنعم به على الناس من مخترعات أنجزها علماء سخرهم الله لخدمة البشرية :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون * ﴾ (البقرة: ١٦٤).

ذلك بأن هذه المنجزات والاختراعات ، وإن قام بها بشر ، إلا أن الله عز وجل هو الذي أحاطهم بهذا العلم :

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ (البقرة (آية الكرسي): ٢٥٥).

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ (الأنبياء: ٨٠) .

كذلك فإن كل اختراع واكتشاف إنساني لا يخرج عن سنن الله وقوانينه الطبيعية ، بل هو في الحقيقة لا يعدو أن يكون توضيحا لعمق هذه السنن .

من أجل ذلك فقد نسب الحق تبارك وتعالى السفن الضخمة التي تمخر عباب البحار كالأعلام أو الجبال المتحركة ، نسبها إلى ذاته العلية حين قال جل وعلا :

﴿ وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام ﴾ (الرحمن: ٢٤).

فالسفن له تعالى وكذلك طائرات هذا الزمن وصواريخه وأقماره الصناعية وكل ما صنع الإنسان واكتشف بإذنه عز وجل وفضله ورحمته بالناس كافة :

﴿ **ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما** ﴾ (الإسراء: ٦٦).

ومن فتن هذا الزمان أن المؤمن قد ينسى موضوع الاعتبار بما يقدمه الإنسان الحديث من مخترعات ، ذلك لأنها تأتيه من بلاد لا تؤمن بالإسلام ولا توحد الله عز وجل ، في الوقت الذي يرى فيه عالمه الإسلامي قد انقلب إلى مستهلك ضعيف لهذه المخترعات والخدمات العصرية . بل إنه ليرى وطنه الإسلامي وقد قهر واستبيحت حرماته بفعل التكنولوجيا الحربية الحديثة لهذه الدول . وفي غمار هذه الأحاسيس والانفعالات قد يحدث انفصام في حس المؤمن المعاصر بين مخلوقات الله الطبيعية التي يرى فيها قدرة الله ورحمته ونعمه العظيمة وبين تكنولوجية المدنية الحديثة التي لا يستثير بعضها فيه إلا السيّىء من الاستجابات . وقد عمق دعاة الفكر الغربي والشرقي هذا الاتجاة في بعض النفوس حتى أصبح الانفصام بين مخلوقات الله الطبيعية ومخترعات الإنسان الحديثة انفصاما بين العلم والدين .

إن القلب الموصول بالله والتصور الصحيح للكون والإنسان ، يعى أن الكرة الأرضية ومن فيها وما فيها إن هى إلا ذرة تافهة في ملك الله الواسع ، وأن الله خلق الإنسان وما عملت يداه :

﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ (الصافات: ٩٦) .

وإن أوضاع العالم الإسلامي المهينة هى سبب ما كسبته أيدي المسلمين من تنكر لمنهج الله في الأرض .

ولا ننس أن نذكر في هذا المجال أن القرآن حينما لفت أنظار أهل مكة والمدينة وماحولهما لـ ﴿**الجوار المنشآت في البحر كالأعلام**﴾ (الرحمن: ٢٤) كان ذلك في الوقت الذي كانت أكثر هذه السفن الضخمة بيد أناس لم يدخلوا بعد في دين الله، فلم يمنع ذلك المؤمنين من التفكر في آية من آيات الله سخرها على يد قوم كافرين.

(٦)

التفكر في الغيبيات وحدوده

إذن فالتفكر عبادة حرة طليقة من كل قيد إلا قيدًا واحدًا هو التفكر في ذات الله تبارك وتعالى. فهو جل وعلا ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١)، وهو تعالى قد تنزه عن فكي الزمان والمكان اللذين سجن فيهما الإنسان فلا يستطيع المرء أن يتصور حادثا إلا إذا ربطه بوقت محدد ومكان معين ، كما يعجز الإنسان عن تخيل أي شيء إلا إذا ألبسه حلة من خبراته السابقة ، فحاول إن شئت أن تتخيل حيوانا جديدا لا يشبه في خلقه أي حيوان تعرفه ، أو تصور أن هناك لونا جديدا غير جميع الألوان التي تراها ، مهما بذلت من جهد فلن تستطيع أن تأتي في الحيوان إلا بصور من خبراتك السابقة للحيوانات ، كأن تضع جناحا في رأسه أو أذنا في رجله . لكن الأذن والجناح والرجل كلهم أجزاء من أجسام حيوانات عرفتها من قبل . أما اللون فلن تستطيع أن تأتي بلون جديد مارأته عيناك من قبل ، وحتى في عالمنا الفاني هذا لا يستطيع أن يرى الإنسان أو يسمع إلا في حدود موجات وذبذبات محصورة يتجاوزها ما هو أدنى منه من الحيوانات والطيور .

ونعيد تأكيد الحقيقة التي سجلناها من قبل ، من أن الإنسان لا يعرف إلا القليل القليل عن دماغه وجهازه العصبي الذي صار به إنسانا . أما حقيقة عقله وروحه ونفسه فأسرار مغلقة وكنوز مخفية . فإن كانت هذه حدود الإنسان في دنياه الفانية فكيف به يجرؤ على التفكر فيمن ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ (الأنعام: ١٠٣)، ومن لا يحده الزمان وهو الذين خلق الزمان. فكما قال عبدالله ابن مسعود: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار. نور السموات والأرض من نور

وجهه ، ... ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره »[٤٨] لذلك فقد أكد العلماء أن كل ما خطر على بالك عن ذات الله تعالى ، فالله جل وعلا بخلافه ، وعن ابن عباس : أن القوم تفكروا في الله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره »[٤٩] .

وقد تساءل الإمام الزمخشري عن معنى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ (طه: ٥)، فرد عليه الإمام الغزالي بهذه الأبيات من الشعر التي تبين ما ذهبنا إليه أجمل تبيين:

قل لمن يفهمُ عني ما أقول	قصّر القولَ فذا شرحٌ يطولْ
ثَمَّ سِرٌّ غامضٌ من دونه	قَصُرَتْ ـ والله ـ أعناق الفحول
أَيْنَ منك الروحُ في جوهرها	هل تراها أم ترى كيف تجول
وكذا الأنفاسُ هل تحصرُها	لا. ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقلُ والْهَمُّ إذا	غَلَبَ النومُ فقل لي يا جهول
أنت، أُكْلُ الخبزِ لا تعرفه	كيف يجري منك أم كيف تبول
فإذا كانت طواياك التي	بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى	لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكي الربُّ أم كيف يُرى	فلعمري ليس ذا إلاّ فضول
فهو لا أينَ ولا كَيْفَ له	وهو ربُّ الكيفِ والكيفُ يحول
جَلَّ ذاتًا وصفاتٍ وسما	وتعالى قدره عما تقول[٥٠]

وصفات الله من جنس ذاته تعالى ، فكما أن جمال الذات الإلهية – كما يقول ابن القيم – أمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره فكذلك صفات الذات الإلهية . لكن المؤمن

---

(٤٨) «الفوائد»، صفحة ٢٣٥.

(٤٩) لأبي نعيم فى الحلية عن ابن عباس ، الجامع الصغير للسيوطى : الجزء الأول ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٥١٤ .

(٥٠) محمد إبراهيم الفيومي: «الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل»، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، صفحة ٣٨، ٣٩.

يدرك بقدر ما أوتي من إيمان جمال هذه الصفات الإلهية فيستدل بها على الذات .

وكما قال ابن عباس : « حجبت الذات بالصفات وحجبت الصفات بالأفعال ، فما ظنكم بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجمال »[٥١] .

فإن قلت : كيف يمنع الإنسان من التفكر في ذات الله ، ألأنه لا يمكن إدراك ذاته العلية بما أوتى الإنسان من سمع وبصر وحواس وعقل ؟ فلماذا لم يمنع المؤمن من التفكر في الموت وما بعده وفي البرزخ والآخرة وكلها ظواهر غيبية لايمكن إدراكها بوسائلنا الدنيوية ؟ والجواب على ذلك : أن هذه الظواهر جميعها ، وإن خفيت خصائصها على المؤمن في حياته الدنيا ، إلا أنها على كل حال من مخلوقات الله . كما أن لها تشابها ومثالاً في الحياة الدنيا . فمن تعرف على أسرار النوم وما يتخلله من أحلام مرعبة ورؤى طيبة مبشرة استطاع أن يتصور الموت وما يصاحبه من أحوال القبر والبرزخ .

بل إن من يتفكر في حياة الإنسان وهو مازال جنينا في الأرحام ثم يقارن حياته في تلك الظلمات بحياته بعد الولادة والبلوغ ، يستطيع أن يتصور الحياة البرزخية بالنسبة للحياة الدنيا .

فلو قدر لنا أن نتحدث إلى جنين في رحم أمه عن سعة الحياة الدنيا وشمسها وقمرها وأنهارها وأشجارها وثمارها لما استطاع أن يتخيلها ؛ لأن خبراته لاتعدو دنياه المظلمة . وهو لا يحتاج إلى الأكل والشرب والتنفس ، فطعامه وشرابه وهواه يأتيه مذابا سائغا عن طريق المشيمة ، فهى أهم الأعضاء بالنسبة لحياته . فإذا تمت الولادة وخرج إلى دنيانا فإن هذه المشيمة تكون قد أدت غرضها فيقطع الحبل السري ويلقى بها حيث يلقى بها . ولا يهتم بها أحد ولا يقف شاعر عند قبرها .

أما في حياتنا الدنيا – وما هى إلا رحم كبير – فيقوم الجسد نفسه مقام المشيمة في الرحم ، ويستمع الإنسان في دنياه هذه من وحي الله وهدى نبيه ﷺ عن

---

(٥١) «الفوائد»، صفحة ٢٣٥.

سعة الآخرة ونعيمها وأهوالها ، فما هو إلا طفل يعيش في رحم الدنيا ، فإذا ما جاء الأجل والتفت الساق بالساق وقبضت الروح ، انتقل إلى حياة برزخية أوسع تكون حاجته فيها لجسمه كحاجة المولود لمشيمته ، فيوضع ذلك الجسم الذي فارقته الحياة في قبره . فالإنسان إذن يتقلب من مرحلة إلى مرحلة أعلى منها وكأنه صاروخ موجه ، كلما انتهت منه مرحلة ونفذ وقودها انفصلت عن جسم الصاروخ فانطلق باندفاع أكبر وهو أخف وزنا وأعظم طاقة . وقد أحسن الشاعر حين قال :

فالعيش نوم ، والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

نجد الإمام الغزالي يستخدم مثال الأجنة في الأرحام والولادة عندما يقارن بين القيامة الصغرى التي تحدث عند موت الإنسان والقيامة الكبرى عندما يحشر إلى ربه فيقول :

« ... للإنسان ولادتان : إحداهما : الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبه سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بعد الموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم »[٥٢] .

كذلك فإن نعيم الجنة من فاكهة وعيون جارية وحور عين ، لها في حياتنا الدنيا ما يشابهها من أشكال التلذذ والسرور وإن كانت أمرا تافها بالمقارنة لها ، فالجنة كما يقول الرسول الكريم ﷺ « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،

---

(٥٢) «إحياء علوم الدين»، الجزء الرابع، صفحة ٦٢.

ولا خطر على قلب بشر »[٥٣] . وهذا التشابه بين نعيم الدنيا والآخرة أمر ثابت بنص القرآن الكريم :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ (البقرة: ٢٥) .

إذن فهناك تشابه بين نعيم الدنيا والآخرة لكنّ هذا التشابه لا يخطر على قلب بشر .

نفس الشيء يمكن أن يقال عن عذاب جهنم . فنار الدنيا تلهب الأجسام وتشوي الجلود وتشوه الملامح ، وربما كان حريقها أشد عذاب يمكن أن يتخيله الإنسان في الدنيا ، ولذلك فإن كثيراً من العبّاد يهتز لرؤية لهيب النيران لأنها تذكره فتستثير فيه الخوف من نار الجحيم . فقد حكى الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن مسعود والربيع بن خيثم كانا على شاطىء الفرات فرأى الربيع نار الحدادين التي يعالجون بها المصنوعات الحديدية فخر مغشيا عليه ، فجاء به ابن مسعود يحمله إلى داره وظل فاقدا للوعي من الظهر حتى فجر اليوم التالي[٥٤] . لذلك كان من السهل على المؤمن التفكر في نار جهنم بالرغم من عظم الفرق وصعوبة القياس ، فقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ... أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة »[٥٥] . كما ورد في حديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا ، أفسدت على أهل الأرض معايشهم »[٥٦] .

---

(٥٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر.

(٥٤) أحمد بن حنبل: «كتاب الزهد»، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م صفحة ٣٩٨.

(٥٥) الحديث لمالك والترمذي كما ورد فى كتاب « جمع الفوائد » للإمام محمد بن سليمان ، طباعة بنك فيصل الإسلامي، ١٩٨٥ ، الجزء الثاني ، أ ب ٨٥٢ .

(٥٦) أخرجه أحمد فى مسنده عن ابن عباس .

لذلك فقد تعمق العلماء والعبّاد وتفكروا وتدبروا فى أمور الموت والبرزخ والآخرة ، ومن هؤلاء الحارث المحاسبي ، الذي صنف كتابا يصور سكرات الموت ونعيم الجنة وعذاب النار أسماه « كتاب التوهم » . وهو يستثير في القارىء صور هذه الظواهر الغيبية والتفكر فيها ويصفها بأسلوب مؤثر وتصوير دقيق حتى يخيل إليك أنك تعيش هذه الأحداث الجسام . فاستمع إليه وهو يتحدث عن سكرات الموت والبعث فيقول :

« فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك من قدميك فوجدت آلام جذبه من أسفل قدميك ، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك ... بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك ... نظرت إلى صفحة وجه الملك ... ونظرت إليه مادا يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك فذلت نفسك لما عاينت ذلك .. وتعلق قلبك بما يفجأك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته : أبشر يا ولى الله برضى الله وثوابه ، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه .

... حتى إذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حس يسمع ، ولا شخص يرى ، وقد بقى الجبار الأعلى كما لم يزل أزليا واحدا منفردا بعظمته وجلاله ، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق ... فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهّم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء ... فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبرا من قرنك إلى قدميك بغبار قبرك ، قائماً على قدميك شاخصاً ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرون بغبار الأرض التي طال بها بلاؤهم . فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع ... فتوهم نفسك

بعريك ومذلتك ... وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة صموتاً أجمعين بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم ، ... قد نزع الملك من ملوك الأرض، ولازمتهم الذلة والصغار فهم أذل أهل الجمع وأصغرهـم خلقة وقدرا بعد عتوهـم وتجبرهـم على عباد الله عز وجل فى أرضـه ، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحشها وسباعها وأنعامها وهوامها ، واستووا جميعا فى موقف العرض والحساب ، تناثرت نجوم السماء من فوقهم ، وطمست الشمس والقمر ، واظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها . فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وأنت بعينك تنظر إلى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ، ثم تمزقت وانفطرت .. والملائكةقيام على أرجائها .. فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير: ﴿... **فصارت وردة كالدهان**﴾ (الرحمن: ٣٧).

ويمضى قائلا : « ثم تطايرت الكتب في الأيمان والشمائل ونصبت الموازين ، فتوهم الميزان بعظمه منصوبا ... وقلبك واقف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو شمالك ... فبينما أنت واقف مع الخلائق إذ نظرت إلى الملك وقد أمر أن يحضر بالزبانية فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد ، فلما رأيتهم ... طار قلبك فزعا ورعبا ، فبينما أنت كذلك إذ نودي باسمك فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين : أين فلان بن فلان ؟ ... فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد ... فتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك ، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم ... حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك بأيديهم وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه : ادن منى يا بن آدم ، فغيبك في نوره ، فوقفت بين يدى رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون ... كالحمل الصغير حين تلده أمه ... فكم لك من خجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسنا وعليك

ساترا . فبأى لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك وعظيم جرمك »[٥٧] .

هذا ما سجله الحارث المحاسبى بعد تفكر عميق فى أمور الآخرة ، وربما كان من المفيد أن نقتبس بعض الخواطر من عالم ومجاهد حديث ، كتب بإسهاب عن مشاهد القيامة بأسلوبه السهل الجميل وتدبره الخاشع الأواب ... يقول الشهيد سيد قطب فى معرض تفسيره للآيات الأولى من سورة التكوير ما يلى :

« ﴿ **إذا الشمس كورت ۝ وإذا النجوم انكدرت ۝ وإذا الجبال سيرت ۝ وإذا العشار عطلت ۝ وإذا الوحوش حشرت ۝ وإذا البحار سجرت ۝ وإذا النفوس زوجت ۝ وإذا الموءودة سئلت ۝ بأى ذنب قتلت** ... ﴾ (التكوير: ١-٩) .

هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذى يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر ، وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويعلم كل مجهول ، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد فى موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف ، وكل شيء من حولها مقلوب !

وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى هذا الكون الذى نعهده ، الكون المنسق الجميل ، الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبنى بأيد وإحكام . إن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ، وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ، وينتهي إلى أجله المقدر، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا فى هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره فى المشاعر والقلوب كى تنفصل من هذه المظاهر الزائلة – مهما بدت لها ثابتة – وتتصل بالحقيقة الباقية .. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول ، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول ، ولكي تنطلق من

---

(٥٧) الحارث المحاسبي: «كتاب التوهم»، دار الوعي، حلب، سوريا، صفحة ١–١٨.

إسار المعهود المألوف فى هذا الكون المشهود ، إلى الحقيقة المطلقة التى لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس ، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو إطار محدود !

وهذا هو الشعور العام الذي يتسرب إلى النفس وهى تطالع مشاهد هذا الانقلاب المرهوب .

فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات ، فعلمها عند الله ، وهى حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا ، وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير ، أو صاعقة .. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان .. كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال ..

وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة .. تسليات أطفال ! ! ! فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئا عن حقيقة ما يجري للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة !

إن تكوير الشمس قد يعني برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء . كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢,٠٠٠ درجة ، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة .. استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض وتكور لا ألسنة له ولا امتداد !

قد يكون هذا ، وقد يكون غيره .. أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذي يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث . وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا ... مجموعتنا الشمسية مثلا ، أو مجرتنا هذه التي تبلغ الملايين من النجوم .. أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله . فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عددا ولا نهاية . فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله .

وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء، كما جاء في سور أخرى: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا..**﴾ (طه: ١٠٥)، ﴿**وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا**﴾ (الواقعة: ٥)، ﴿**وسيرت الجبال فكانت سرابًا**﴾ (النبأ: ٢٠)، فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها، وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض، والذي يقول عنه القرآن: ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها..**﴾ (لزلزلة: ١ــ٢)، وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل.

﴿ **وإذا الوحوش حشرت ..** ﴾ فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب ، ونسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها ، ومضت هائمة على وجوهها ، لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عادتها ، ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب ؟ !

وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها (التي تحدثنا عنها في سورة النازعات) وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض .. وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال في موضع آخر :

﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ .. فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة ، وهو أشد هولا . أو على أى نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ، فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول ، وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة !

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها . ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة ، كما قال في موضع آخر: ﴿وكنتم أزواجًا ثلاثة﴾ (الواقعة: ٧)، أي صنوفًا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة. أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة ! »[٥٨] .

ويكفي هذا القدر لنوضح أهمية التفكر وسياحته في أرجاء الكون ، دون قيد من زمان ولا مكان ولا دنيا ولا آخرة . فليس في هذا الوجود غير الله تبارك وتعالى وخلقه ، فالمؤمن محظور عليه التفكر في ذات الله وله الحرية بعد ذلك أن يتفكر فيما يشاء .

---

(٥٨) في ظلال القرآن، الجزء السادس.

(٧)

الفروق الفردية في درجات التفكر

ولكن هل هنالك درجات مختلفة للتفكر والتأمل يكون في بعضه الأجر على قدر المشقة ؟ أعني بذلك الفروق بين الأفراد والفروق بين خصائص الأشياء التي ينظر فيها المؤمن ؟ الإجابة على هذا السؤال تكتنفها عوامل غامضة ومشكلات لا قدرة للعقل البشري على قياسها والإحاطة الشاملة بها . فهناك كما يبدو لي على الأقل ثمانية أبعاد ومتغيرات متداخلة تتضافر في تكوين هذه الفروق نناقشها فيما يأتي :

أ ـ عمق الإيمان :

عمق الفكرة والتدبر يعتمد أولا وقبل كل شيء على درجة إيمان الشخص وصلته بالله . وهذا أمر ذاتي لا يعلمه إلا الله ثم صاحب القلب المؤمن . فكلما ازداد إيمان المسلم كلما سهل عليه الاستغراق في ملكوت ربه واستجاشة أنبل مشاعر الخشية والحب .

فكما ذكرنا من قبل فإن التفكر يمر بثلاث مراحل ، هي المرحلة المعرفية البدائية ثم مرحلة التذوق لدقة الخلق وجماله ثم مرحلة العبور بهذا التذوق لدقة الخلق وجماله إلى مبدعه جل وعلا ، لذلك كلما ازداد إيمان الشخص وازدادت خشيته وحبه لله تعالى ، ازداد تبعا لذلك عمق تفكره وتدبره في خلق السموات والأرض . فإذا تابع التدبر والتفكر وهو في هذه الحالة العاطفية الروحية الحارة فإنه ينتقل بين المرحلة التذوقية الثانية ومرحلة الاعتبار الثالثة بعيدا عن المرحلة المعرفية الباردة . وهنا تصدق عليه صفة المتقلب بين الذكر والفكر ، وقد تزداد هذه الحالة العاطفية من الوجد حتى لا يقوى جهازه النفسي على احتمالها .

ونقرأ في تاريخ العُبّاد عجبًا في أحوال تفكرهم الصادق. فيبدأ أحدهم بتأمل هـادئ ثم يستغرق فى الفكـــر حتى يغيب عن كل ما حولـه . فقد قيل : إن داود الطائي صعد على سطح داره في ليلة قمراء ليتفكر في ملكوت السموات والأرض ، فظل ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جاره فوثب صاحب الدار من فراشه والسيف في يده ظانا أنه لص ، فلما عرف أنه داود وضع سيفه وسألـه : من ذا الذى طرحه من السطـح ؟ فقال داود : والله ما شعرت بذلك(٥٩) .

ب ـ القدرة على التركيز الذهني :

إذن فدرجة إيمان المتفكر ومعرفته بالله هي العامل الأول والأساسي الذي يحدد عمق تفكره . أما العامل الثاني فيتعلق ببعض خصائص المؤمن وسمات شخصيته وبقدرته الفطرية على التركيز الذهني دون أن يشعر بالتعب والملل السريع ، وهذه الخاصية تعتمد إلى حد كبير على خصائص الجهاز العصبي الذي وهبه الله إياه .

فهناك كثير من الأبحاث التجريبية التي تؤكد وجود اختلافات بين الناس في قدرتهم على التركيز الذهني والصبر عليه . من ذلك الدراسات النفسية التي أجريت على المنبسطين (Extraverts) والمنطوين (Introverts) والتي تشير إلى أن هذه الظاهرة لها أساس عضوي في الجهاز العصبي في الإنسان يعتقد بأنه يكمن في نشاط التكوين الشبكي (Reticular Formation) وأليافه العصبية الصاعدة منه إلى الدماغ (Reticular Activating System) وهذا التكوين العصبي الذي يقبع في ساق الدماغ ويمتد صاعدا إلى مراكز الدماغ العليا يقوم بدور البوابة التي تتحكم في النبضات العصبية والإثارة الصاعدة للدماغ . ففي بعض الأفراد يضخم التكوين الشبكي من الإشارات العصبية التي ترسلها الأعضاء الحسية المختلفة إلى الدماغ فيتمتع الفرد بسبب ذلك بقدرة فائقة على التركيز الذهني ولفترات طويلة

---

(٥٩) «إحياء علوم الدين»، الجزء الرابع، صفحة ٣٨٨ــ٣٨٩.

نسبيا . كما أنه يكتفي بالقليل القليل من النشاطات الحسية المثيرة في بيئته ، فيميل إلى العزلة والانطواء والتفكير الداخلي الاستبطاني . ولا يطيق الأصوات المرتفعة ولا الموسيقى الصاخبة ولا الألوان الصارخة . فالانطوائيُّ يفضل الاهتمام بالأنشطة التي لا تدفعه إلى الاختلاط بالناس والانغماس في الأعمال المثيرة . فتجده منهمكا في القراءة على انفراد أو في تنسيق حديقته أو العمل في مختبره . ويستمتع بأعماله الروتينية دون كلل أو ملل . تجده في صلاته الاجتماعية كتوما لأسراره لا يبوح بما في نفسه إلا إلى القليل من أصدقائه المقربين ، كما يميل إلى التخطيط المدروس لحياته وتنظيم أموره . نادرا ما يظهر عواطفه أو يتصرف بطريقة تلقائية غضوبة عدوانية . لذلك فقد جاءت نتائج الكثير من الأبحاث التجريبية النفسية لتؤكد أن هؤلاء الأفراد يستطيعون القيام بالأعمال التي تتطلب تركيزا مستمرا لفترات طويلة وبدرجة منخفضة جدا من الأخطاء الناتجة عن عوامل الكبح (Inhibition) والتعب .

من هذا نتوقع أن هذا الطراز من الناس يستطيع التعمق في النشاط الفكري الطويل بغض النظر عن إيمانه أو كفره . أما إذا كان مؤمنا متدبرا فإنه يستطيع بحكم جبلته العصبية أن يواصل التفكر في خلق الله تعالى لفترات أطول وبدرجات أعمق من غيره من الناس .

وفي المقابل هناك طائفة من البشر يقوم التكوين الشبكي وأليافه العصبية الصاعدة لديهم بكف الإشارات والنبضات العصبية الذاهبة إلى مراكز الدماغ العليا والتخفيف من حدتها . فهؤلاء بعكس أولئك ، يحتاجون إلى درجة عالية من الإثارة في البيئة التي يعيشون فيها حتى يعوضوا الكف الذي يقوم به التكوين الشبكي ، أو هكذا يزعم أصحاب هذه النظرية العصبية .

لذلك تجد المنبسط (Extravert) يحب الحفلات العامة ويتمتع بعدد كبير جدا من الأصدقاء ؛ لأنه في حاجة ماسة للإثارة وتغير الوجوه والحديث المتواصل . وتراه يضيق بالوحدة ولا يحب القراءة ويمل من النشاطات الروتينية ، فهو كثير

التنقل من مسكن إلى آخر ومن وظيفة إلى غيرها ويحب تنويع الأطعمة والأصدقاء والزوجات . لا يخفي مشاعره الداخلية ويميل إلى العنف . سريع الغضب والصفح ويفضل الأعمال التي لا تحتاج إلى تركيز ذهني متواصل أو تلك التي تتسم بالتكرار والنمط الواحد . وقد كشفت التجارب المختبرية المتكررة أن المنبسطين أكثر أخطاء وأقل تركيزا من المنطوين في شتى النشاطات الذهنية والحركية .

لذلك فإنه من المحتمل جدا لمثل هؤلاء الأفراد أن يكونوا بحكم تكوينهم العصبي أقل من غيرهم في الصبر على طويل التفكر وعمقه إذا تساووا معهم في درجة الإيمان وظروف الحياة .

وإذا سلمنا بأن للمنطوين درجة على المنبسطين في مجال التفكر فلا يعني ذلك بالطبع أن ذلك يقلل من شأنهم بشكل عام . فهم بفضل تكوينهم العصبي والنفسي قد يتفوقون على المنطوين في المجالات الإسلامية التي تحتاج إلى الاختلاط بالناس وكسب الأصدقاء . وعلى كل حال فإن الغالبية العظمى من الناس متوسطون بين الانطواء والانبساط وأعدادهم تتناقص بالتدريج كلما اتجهنا بقياساتنا نحو الانبساط أو الانطواء .

جـ ـ الحالة الانفعالية والعقلية :

أما العامل الثالث فهو من العوامل النفسية البينة التي لا تحتاج إلى توضيح وتفصيل . فالتفكر يحتاج إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية . فإذا تركنا الحديث عن الصحة الجسمية لبداهتها فإننا لا نتوقع من المؤمن المصاب بالقلق المعقد أو الاكتئاب المضني أو الوسواس القهري أو توهم المرض المرعب ... أو غير ذلك من الاضطرابات العصابية الحادة ... لانتوقع من هؤلاء أن يتفكروا في خلق السموات والأرض بدرجة عالية من التركيز والعمق . فقد ابتلاهم الله بما قد يشغلهم عن ذلك . ولا شك أن كلا الناحيتين العضوية والنفسية تُؤثران في تكوين هذه الاضطرابات ، وهناك العديد من الأبحاث

التجريبية التي تؤكد أن التركيز الذهني وحل المشكلات يضعف مع ازدياد التوتر والقلق .

وإذا استطاع هؤلاء العصابيون أن يتدبروا ولو بدرجات ضعيفة ، فالذين ابتلاهم الله بالذهان أو الجنون أو التخلف العقلي الشديد أو بذهان الشيخوخة (الخزن) لا يستطيعون التفكر والتدبر فى خلق الله ولا حتى بذلك المستوى الضعيف . فهؤلاء قد رفع عنهم القلم . لذلك فما بين السواء النفسي المطمئن والذهان الذي رفع عنه القلم ، هناك درجات من الحالات النفسية والانفعالية التي تنقص من قدرة الفرد على التفكير بقدر حدتها .

ولا شك في أن المرض النفسي أشد على المؤمن المتفكر من المرض الجسمي العضوي ، بل إن كثيرا من العبّاد يستبشر بما يلاقيه من أمراض جسمية ، وربما تصبح هذه الأمراض الجسمية نفسها مجالا للتأمل والتفكر ولا تمنعهم من الذكر والعبادة . أما الهم والحزن والاكتئاب وضيق الصدر فأعداء للصفاء الذهني الذي يحتاجه المؤمن الذاكر المتفكر ، بل ربما يكون ذلك سبباً في تثبيطه ومنعه من القيام بأي عمل مفيد ، لذلك فقد استعاذ الرسول ﷺ في دعائه المشهور من الهم والحزن والعجز والكسل ، ونرى أن العجز والكسل ربما يكونان نتيجة طبيعية للهم والحزن .

د ـ العوامل البيئية :

أما العامل الرابع فيتعلق بأثر البيئة التي يعيش فيها المؤمن ودرجة خلو ذهنه أو انشغاله بالمشكلات اليومية ومتاعب الحياة المعروفة ونوع العمل الوظيفي الذي يقوم به ، وغير ذلك من الأمور البيئية التي لا حصر لها .

فالمؤمن الذي يعيش مع زوجة صالحة زاهدة ويدرس سبع ساعات في الأسبوع ، تنحصر في مادتي العقيدة والتفسير في جامعة إسلامية ، في بلد تتوفر فيها جميع أسباب الحياة الرغدة ، سوف يجد أن كل ما يحيط به في بيئته يشجعه على الذكر والتفكر والتدبر الدؤوب .

أما ذلك المؤمن المرهق الذي يعمل صباح مساء في إحدى الشركات الخاصة ، ويقضي معظم وقته في المزايدات التجارية والحسابات والعطاءات الحكومية ، ثم يرجع إلى بيته ليستأنف الانتظار الطويل أمام المخابز ومحطات البترول والغاز ليؤمن ضرورات الحياة لنفسه ولأسرته الساخطة ، فسوف لايجد الوقت ولا الهدوء الذي يؤهله لعمق الفكرة فى خلق الله أو الذكر والتدبر ، وإن كان مساويا للأول فى درجة إيمانه ومشابها له في تكوينه العصبي والنفسي .

هـ ـ درجة معرفة المؤمن بالشيء الذى يتفكر فيه :

العامل الخامس يعتمد على مدى معرفة الشخص بخصائص الشيء الذي يتدبر خلقه ، فكل إنسان في هذا الوجود يجد فيما حوله عبرًا وآياتٍ بقدر معرفته وعلمه فيما يتأمله ، فأنا أنظر إلى السماء وأتأمل جمالها الساحر واتساعها وأعجب بنجومها المتلألئة . والمؤمن المتخصص في علم الفلك ينظر إلى السماء فيرى فيها ما تراه عيناه ومالا تراه .. يرى في النجوم اللامعة المتناثرة بلايين الشموس الملتهبة التي تقذف بحممها في فضاء الله الواسع ، ويرى في اتساع السماء ملايين المجرات التي تبعد عنا بملايين السنين الضوئية، ويراها من خلال نظريات الفيزياء الحديثة وهى تزداد بعدا عن بعضها بعضا بسرعات خارقة قد تصل إلى أربعين ألف ميل في الثانية الواحدة ! ! فيرى مثل هذا العالم المؤمن وهو ينظر إلى السماء أن المعجزات في تباعد مستمر والفضاء يتمدد والكون يتسع ... ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون**﴾ (الذاريات: ٤٧). كما يستشعر وحدانية الله في وحدة خلقه. فالزمان والمكان وحدة واحدة، والكتلة والطاقة وجهان لحقيقة واحدة. فإن كنا على درجة واحدة من الإيمان والتركيز وحضور القلب فسيصل هذا العالم إلى درجة أعلى منا بكثير في عمق تفكره .

و ـ القدوة الصالحة وأثر الصحبة :

إن التفكر الصحيح ـ كما أسلفنا ـ نشاط يشمل جميع المجالات المعرفية والعاطفية للإنسان.

لذلك فإنه يزداد عمقا وتجليا بالمداومة عليه وبربطه بذكر الله وتسبيحه ، حتى يصل المؤمن إلى درجة عالية يرى بها قدرة الله وحكمته ورحمته وسائر صفاته في كل ما يرى ويسمع من حوله . وفي ذلك يقول العلامة ابن القيم في كتابه مدارج السالكين : إن العبد المتفكر الذاكر يفتح له باب دوام ... «التطلع إلى حضرة العلي الأعلى ، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته ، مستويا على عرشه ، ناظرا إلى خلقه ، سامعا لأصواتهم ، مشاهدا لبواطنهم ... ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية ، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده ... وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه ، وصفات كماله ونعوت جلاله ، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه ، بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله ، اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه ، فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء ... فإذا استمر له ذلك : يطوي الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار ،وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه ، كما يفيض نور الشمس عن جرمها»[٦٠] . مما لاشك فيه أن هذا النور الذي مثله ابن القيم بنور الشمس يفيض على كل من يتصل بهذا العارف أو يصادقه أو يتتلمذ عليه ، والمرء كما يقول الرسول ﷺ « على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[٦١] وإن أثر القدوة الصالحة والصحبة أمر لا يحتاج منا إلى كثير حديث . فقد جاء الدين بتوضيحه وعلم النفس الاجتماعي التجريبي الحديث بتثبيته ، ومشاهدات عامة الناس بتأكيده ، حتى أصبح عندهم من البديهيات ، لذلك فإن « عامل » القدوة الصالحة وأثر الصحبة لمن أهم العوامل التي تؤثر في عمق التفكر لدى المؤمنين ، كما أن القدوة السيئة من أشد الأمور صدا له .

ز ــ ماهية الأشياء :

أما الأمر السابع فهو عن ماهية الشيء موضوع التدبر وأعمال الفكر

---

(٦٠) «تهذيب مدارج السالكين»، صفحة ٦٣٢.

(٦١) رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذي.

وخصائصه . فقد تحدثنا من قبل عن سهولة تفكر الإنسان بشكل عام في مخلوقات الله الطبيعية كالجبال والأنهار والغابات بالمقارنة لتدبره مخترعات الإنسان وربطها بنعم الله . ذلك لأن المخترعات الاصطناعية تحتاج منا إلى درجة أكبر من التجريد بالمقارنة للأشياء الطبيعية التي لم تمسها يد الإنسان . بل إن هناك ظواهر طبيعية تستثير تلقائيا الفكر والمشاعر وتهز الكيان النفسي والروحي للإنسان وتفرض نفسها فرضا على قلبه وفكره ، فوميض البرق وقصف الرعد وهطول الأمطار وزمجرة الرياح لها في النفس الإنسانية وقع خاص يأتي فيه التفكر دون جهد مرتبطا بانفعالات الخشية والرجاء :

﴿**هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال**﴾ (الرعد: ١٢).

وفي المقابل هناك بعض الظواهر التي يصعب تدبرها ، إما لكونها موغلة في التجريد أو لأن العقل البشري لا يستطيع بطبيعته تصورها والإحاطة بها ؛ لأن بعضها غير مادي ولا يخضع لقيد الزمان والمكان الذي لا يستطيع العقل تخطيها

ح ـ درجة ألفة المتفكر على الأشياء :

لا يستغرب القارىء أن تكون الألفة الشديدة والتعود عائقا للتفكر في الشيء وتدبره ، فالتكرار الرتيب يفقد أعظم ظواهر هذا الكون روعتها وعظمتها ، وإلا فكيف لا تهتز مشاعرنا لرؤية الشروق كل صباح بما فيه من الآيات البينات ، وكيف لا تمتلىء أنفسنا بالخشوع ونحن نستعرض ، صباحا ومساء ، الخلائق التي تعمر أرضنا من نباتات وحيوانات وطيور في جو السماء وأسماك في البحار والأنهار .

ومن الطرائف في موضوع الألفة والجدة وأثرهما على التفكر ما كتبه الإمام ابن الجوزي عن رحلته إلى الحج وتأثره بمشهد الجبال الهائلة التي رآها في طريق خيبر ، مما جعله يؤنب نفسه على إحساسه العميق بالخشية والخضوع لعظمة الله تبارك وتعالى بعد تفكره في هذه الجبال . وأخذ يذكر نفسه بعظمة البحار

والسموات والأفلاك التي يشاهدها دوما فلا تأتي له بالخشية التي وجدها من التفكر في الجبال الهائلة ، وسجل الإمام ابن الجوزي هذا الحوار الطريف بقوله :

« عرض لي في طريق الحج خوف من العرب ، فسرنا على طريق خيبر ، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني ، وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري ، فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها ، فصحت بالنفس : ويحك اعبري إلى البحر وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر ، تشاهدي أهوالا هى أعظم من هذه ، ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة في فلاة ، ثم جولي في الأفلاك وطوفي حول العرش وتلمحي مافي الجنان والنيران ، ثم اخرجي عن الكل والتفتي إليه ، فإنك تشاهدينه في قبضة القادر الذي لاتقف قدرته عند حد ، ثم التفتي إليك فتلمحي بدايتك ونهايتك ، وتفكري فيما قبل البداية ، وليس إلا العدم ، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب ، فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى ؟ وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم ؟

بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه أو لغابت من حبه ، غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل ، وأن الفطنة لو تلمحت المعاني لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل .

سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له ! سبحانه !»[٦٢].
(انتهى كلام ابن الجوزي) .

إذن فكلما ازدادت الألفة نمت كثافة غشاوة التعود على أبصارنا حتى ننسى وجود أهم الأشياء بالنسبة لنا . فلعل حجاب التعود هذا هو الذي أعاق الإنسان من التفكر في أهم كائن على وجه الأرض ، لأنه أكثر شيء ألفه بالنسبة له ، ألا هو الإنسان ذاته بلحمه ودمه ونفسه التي بين جنبيه . فلقد استطاع الإنسان خلال العصور المتعاقبة أن ينظر في كل شيء حوله وأن يطور علوم الأرض والزراعة

---

(٦٢) ابن الجوزي: «صيد الخاطر»، صفحة ١٤٨، ١٤٩.

والكيمياء والفلك ووسائل الانتقال والإنتاج وفنون الحرب وغيرها من الميادين .. لكن علوم الإنسان بقيت متخلفة تخلفا واضحا ، وإن استطاع الإنسان الحديث أن يعوض ما فاته في ميدان دراسات الإنسان المادية والبيولوجية ، إلا أن علوم الإنسان النفسية والاجتماعية مازالت في تخلف نسبي كبير .

لقد حاولنا في هذا الفصل أن نناقش أهم العوامل التي تؤدي إلى الفروق الفردية بين المؤمنين في عمق تفكرهم ، ولخصنا أهم هذه العوامل في عمق الإيمان والقدرة على التركيز الذهني والحالة الانفعالية والعقلية للمؤمن والعوامل البيئية وماهية الأشياء التي يتفكر فيها ودرجة ألفة المتفكر على هذه الأشياء ، وكان حديثنا يربط بين الجوانب الفكرية والنفسية والروحية ، لكننا في ختام هذا الحديث نتساءل عن الأهمية النسبية لهذه العوامل المختلفة .

مما لاشك فيه أن أهمية أي عامل من هذه العوامل يعتمد على ظروف الشخص الذي يقوم بعملية التفكر ، ففي بعض الحالات يزداد عمق التفكر بشكل ملحوظ إذا تحسنت حالة المؤمن الانفعالية والنفسية . وفي حالات أخرى يجد المسلم نفسه وقد داوم على التفكر والذكر إذا انتقل من صخب المدينة ليعيش في قرية نائية وجد فيها من يعاونه ويشد أزره في طريق البر والتقوى ، لكن العامل الأساسي الذي يحدد عمق الفكرة بالنسبة للمؤمن المتدبر في خلق الله هو العامل الإيماني . فعمق الإيمان والصلة بالله هما العمود الفقري ، وما العوامل الأخرى كقدرة المؤمن على تركيز الذهن ودرجة معرفته بالشيء الذي يتفكر فيه وغيرها من العوامل التي ناقشناها ، ماهي في الحقيقة إلا جوانب ثانوية تخضع لهذا العامل الإيماني وتستمد قوتها على التأثير من طاقته . وقد أخطأ من قال من العلماء المحدثين بأننا اليوم أقدر ممن سبقنا من المؤمنين – حتى في عهد الصحابة – على الوصول إلى درجة أعلى من التفكر في خلق الله لازدياد معرفتنا بخصائص الأشياء بسبب تقدم العلم التقني الحديث ، ذلك لأن التأثير الحقيقي بما يراه ويحسه المؤمن في بيئته يعتمد أساسا على عمق إيمانه وخشيته لله وحبه له جل وعلا ، أكثر بكثير مما

يعتمد على ما يعرفه من معلومات ويكرسه من وقت للبحث في ظواهر الأشياء ، فالتدبر حالة انفعالية يتأثر فيها المؤمن بما يحسه ويدركه من دقة وجمال في كون الله الواسع وليس التفكر حالة معرفية باردة تزداد بازدياد المعلومات .

ولنضرب لما ذهبنا إليه مثلا افتراضيا محسوسا . فلنسمح لأنفسنا بافتراض أن لهذه العوامل التي تحدثنا عنها وحدات قياسية متشابهة ، تزداد أو تنقص بسبب تغير ظروف المؤمن المتفكر .

فإذا رمزنا للعامل الإيماني بالحرف « أ » وعامل التركيز الذهني بالحرف « ت » ومعرفة المؤمن بالشيء الذي يتفكر فيه بالحرف « ع » وبخصائص الشيء الذي يتفكر فيه بالحرف « خ » وغيرها من العوامل بحروف أخرى ، فإن درجة عمق التفكر بالوحدات التي افترضناها تعتمد على تأثير العامل الإيماني « أ » في كل واحد من هذه العوامل الأخرى . ولو جاز لنا وضع ذلك في معادلة حسابية لكانت كالآتي :

درجة عمق التفكر = درجة العامل الإيماني × (درجة التركيز الذهني + درجة المعرفة بالأشياء + درجة الحالة الانفعالية + ... إلخ) .

وتكون بالرموز كالآتي :

درجة عمق التفكر = أ × (ت +خ +ع + ... إلخ) .

نرى من هذه المعادلة الافتراضية أنه لو ازداد العامل الإيماني كان له أثر الأضعاف المضاعفة في ازدياد عمق التفكر بسبب تفاعله مع جميع العوامل الأخرى ، أما إذا ازدادت درجة العوامل الأخرى فيكون تأثيرها محدودا بالنسبة للعامل الإيماني ، كالفرق بين جمع الأعداد وضربها . لذلك فإن من كان له إيمان الصحابة يكفيه القليل من العلم الظاهر لما يراه في بيئته والقليل من الوقت ليصل إلى أعماق من التفكر لا تشرئب إليها أعناق أمثالنا من الضعفاء . وفي المقابل ، فإن من كان له علم الأولين والآخرين بما يتفكر فيه وكان له كل ما يريد من

وقت وهدوء بال ، ولكنه ضعيف في إيمانه ، فلن يصل إلى درجة عالية من عمق التفكر مهما بذل من جهد . أما إذا انخفض العامل الإيماني « أ » إلى درجة الصفر ، أي الكفر الصريح فإن العوامل الأخرى تصبح لا قيمة لها مهما كبرت في حجمها ؛ لأن حاصل ضرب أي عدد في صفر لا يزيد على الصفر .

إن موضوع التفكر والإيمان وغيره من المفاهيم الروحية لا تخضع بالطبع لمثل هذه القياسات والمعادلات الساذجة ، إنما هي خاطرة مرت على ذهني وأنا أكتب هذا الموضوع فأردت أن أشرك فيها القارئ .

وإني لأرجو أن يستفيد القارئ الذي يرغب في إعادة النظر في تفكره وزيادة اهتمامه بهذه العبادة العظيمة ، أن يعرض نفسه على هذه العوامل - وغيرها مما يخطر على باله - ليجتهد في مزاولة الأنشطة الجالبة لعمق الفكرة وترسيخ عبادة التفكر في كيانه النفسي والروحي ، وأن يتعرف على تلك العوامل والعادات التي تصده عن التفكر فيتجنبها ويقاومها بضدها .

وقد ناقشنا في هذا المجال أهم العوامل التي تؤدي إلى الفروق الفردية بين المؤمنين ، لكنه من الواضح أن لكل مؤمن ظروفه الخاصة وخبراته الحياتية المتفردة .

(٨)

التفكر في سنن الكون
بين العلم التجريبي والدين

إن كانت هذه هى المكانة العالية التي أعطاها الإسلام لعبادة التفكر في خلق الله ، فقد تعس وخاب من أغلق قلبه وسمعه وبصره وبصيرته عن آيات الله الواضحة التي تعرض عليه صباح مساء في صفحات الكون الناصعة :

﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ (يوسف: ١٠٥).

بل إن بعضا من هؤلاء الغافلين ليعرفون كثيراً من خبايا آيات الله في المادة والطاقة وفي علم الحياة ، لكنهم لا يرتفعون بهذه المعرفة عن جوانبها الظاهرة السطحية فلا ينفذون من بدائع الخلق إلى خالقها ومدبرها :

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (الروم: ٧).

وفي الحقيقة فإن مشكلة العبور من الظواهر الكونية إلى خالقها تمثل الفرق الأساسي بين العالم التجريبي المسلم وغير المسلم . ذلك بأن الخطوات الأولى في التفكر كعبادة ، أو على الأقل التفكر في بيئة الإنسان الخارجية ، هي الملاحظة الواعية والمشاهدة الدقيقة بالحواس عن طريق السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وهذه هي بعينها الخطوة الأساسية التي تعتمدها الطريقة العلمية (Scientific Method) للوصول إلى نتائجها المعتمدة وإلى تصميماتها ونظرياتها ، كما أن الأدلة التي تقوم على الملاحظة الدقيقة عن طريق الحواس (Empirical Evidence) هى الأدلة الوحيدة التي يقبلها العلم التجريبي . فالعلم التجريبي يبدأ

إذن من الملاحظة والتدبر عن طريق الحواس ، ثم ينتقل إلى التعميمات والفرضيات فالتطبيقات ليرجع مرة أخرى للتأكد من صحة فرضياته بملاحظات ومشاهدات جديدة . وفي ذلك يشبه العالم Whitehead [٦٣] العلم التجريبي بالطائرة التي تقلع من أرض الملاحظة الصلبة لتطير في هواء التعميمات والنظريات الرقيق ثم تهبط ثانية في أرض الملاحظة والتدبر بالحواس .

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن تفكر المسلم في الكون وبحوث العالم التجريبي الحديث يتشابهان ولو ظاهريا ، في أن كليهما لا يفتش عن الأشياء المتفرقة التي لا صلة بينها ، بل يستقصيان السنن والقوانين العامة الثابتة في خلق السموات والأرض .

ذلك أن الإنسان بطبعه ، بغض النظر عن إيمانه أو كفره ، يمج الفوضى والغموض ويميل إلى التنظيم والوضوح للمثيرات التي يتعرض لها صباح مساء ، فهو حتى بالنسبة للإدراك الحسي البسيط للأشكال الناقصة أو الغامضة التي يراها في المختبر ، نجده يقوم بطريقة تلقائية [٦٤] بإكمال الفجوات حتى يصبح الشكل مألوفا كدائرة أو مثلث مثلا ، أو رمز آخر له معنى مألوف كعلم لأحد الأقطار أو شعار لجمعية معينة .

نفس الظاهرة نراها في إدراك الإنسان وتفكره فيما تلتقطه جميع حواسه من سمع وشم وتذوق ، كما نشاهدها في العمليات العقلية العليا في حل المشكلات وفي التجريد وتكوين المفاهيم ، لذلك عندما ينظر الإنسان في كون الله الواسع يفتش بفطرته عن النواميس التي تنظم الظواهر المختلفة ، حتى يستطيع التنبؤ بحدوثها في إطار هذا الانتظام فيزول الغموض .

ومن أكثر ما يهز القلب المؤمن ، تعرفه على خفايا هذه النواميس الإلهية في

---

(٦٣) As quoted by L. Malpass, Human Behavior, McGraw Hill, 1966, p.3.

(٦٤) انظر التجارب العديدة التي أجرتها مدرسة «Gestalt الجشطالت» لتوضيح هذه الظاهرة عند الإنسان.

دقيق صنع الله ، سواء كان ذلك في اكتشاف اللغة الكيميائية لنملة صغيرة أو في التعرف على مدار جرم سماوي هائل .

ولعل هذه الفطرة التي أودعها الله جذر قلوب الرجال هى التي تجعل المتفكرين من علماء اليوم يتحدثون بلغة العباد ، فنستمع إلى عالم متخصص أمريكي مثل الدكتور سيسل هامان ، أستاذ الطفيليات الحيوانية ليحدثنا عن طيور بالتيمور فيقول :

« وماذا عن عش طائر بالتيمور ؟ من الذي علم هذا الطير ذلك الفن الرفيع ؟ ولماذا تتشابه جميع الأعشاش التي تبنيها الطيور من هذا النوع ؟ إذا قلت الغريزة فإن ذلك يعد مخرجا من السؤال ولكنه إجابة قاصرة فما الغرائز ؟ يقول البعض إنه السلوك الذي لا يتعلمه الحيوان . أليس من المنطق أن نرى قدرة الله تتجلى في هذه الكائنات التي خلقها فسواها تبعا لقوانين خاصة لا نكاد ندري نحن عن كنهها شيئا » (انتهى)[٦٥] وفي المقابل تقرأ للمتفكرين من عبّادنا في جيل الإسلام الأول ومن تبعهم من علمائنا الأقدمين ، فتجد فيما تركوا ما يذهلنا من دقة ملاحظة علماء اليوم بعض معارفهم الحديثة . ففي موضوع الطيور الذي طرقه الدكتور سيسل هامان نجد الإمام الغزالي يفصّل القول فيه وكأنه عالم حديث ، فيقول في كتابه القيم (الحكمة في مخلوقات الله) ما يلي:

« اعلم رحمك الله أن الله تعالى خلق الطير ، وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران و لم يخلق فيه ما يثقله ... فخلق للطير الرجلين دون اليدين ، وجعل جلد ساقيه غليظا متقنا جدا ، ... (لأنه) لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء ، فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلوثه ... حتى يكون مخلصا للطيران ، ... وخلق صدره ... ملفوفا ، كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وقوى سبحانه أصل الريش

---

(٦٥) مونسما : « الله يتجلى فى عصر العلم » ، فرانكلين للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٨ م صفحة ١٤٠ .

وجعله تصبا منسوجا فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة ... وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ، وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل في سائر بدنه ريشا غيره ، كسوة ووقاية وجمالا ... ثم تأمل ريش الطائر تجده منسوجا بنسج الثوب من سلوك (خيوط) رقاق ، فيها من اليبس ما يمسك حولها ومن اللين مالا ينكسر معه عودها ، وهي خاوية ... مجوفة ليخف على الطير طيرانه ... وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه ، فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته ، وجعل له منفذا واحدا للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته (كما) أنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران .

وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه ، فلولاه لمالت به الأجنحة في حالة الطيران يمينا وشمالا ، فكان له بمنزلة رجل السفينة التي يعتدل بها مسيرها »[٦٦] .

تأمل دقة تفكر الإمام الغزالي في خلق الطير ووسائل طيرانه ، مما جعله يتحدث وكأنه اطلع على قوانين ديناميات الطير الحديثة !

وتقرأ للدكتور مصطفى محمود يلخص لنا أحدث الدراسات العلمية عن النمل . فيقول :

« إن وقفة أمام نملة صغيرة لمما يثير الذهول . كيف تعلمت هذه النملة أن تبني بيوتها الهندسية المعقدة ذات الدهاليز والقرى ، والبدرومات والمخازن ؟

كيف انتظمت في مجتمع فيه توزيع دقيق للاختصاصات والوظائف ..؟ كيف تعلمت أن تجلب حشرة أخرى مثل حشرة المن وتسوقها أمامها في قطعان ؟

إن اتصال هذه الأعداد الهائلة من النمل في مجتمع ذي نظام معناه أنها اكتشفت بينها وبين بعضها نوعا من اللغة والتفاهم . وآخر البحوث في هذا الباب يقول :

---

(٦٦) أبو حامد الغزالي: «الحكمة في مخلوقات الله»، صفحة ٨٧ــ٩٥.

إن النمل يتفاهم مع بعضه البعض ليس بالإشارة ولا اللغة المنطوقة ولكن بلغة كيماوية ... راقب عش النمل فسوف ترى بين وقت وآخر نملتين تلتقيان وتتبادلان ما يشبه القبلة والوشوشة ... وفي الواقع إنها ليست قبلة ولا وشوشة وإنما كل نملة تفرز في فم الأخرى لعابا خاصا فيه رمز كيميائى معين معناه ... لنفعل كذا وكذا ...

شئ آخر في النمل لا يمكن أن نسميه العقل إنما هو شيء كالبصيرة.. أن تقوم النملة بخزن الطعام والحبوب والفتات والفضلات ، وتقوم بحراستها والسهر عليها والدفاع عنها ضد المغيرين تأهبًا لفصل الشتاء الذي لم يقبل بعد ... ودون أن تكون عندها قدرة عقلية ولا خيال لتصور المستقبل وظروفه واحتياجاته ، كيف ! ! ؟ »[٦٧] .

قارن ذلك بما وصلنا مما قاله المتفكرون في خلق الله من أمتنا وعلمائنا في جيل الإسلام الأول ومن تبعهم من الأقدمين ، فتجد فيما تركوا دقة ملاحظة علماء اليوم . فقد أثر عن سيدنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال متفكرا في النملة :

« انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصَبَّتْ على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها في مستقرها ، تجمع في حرها لبردها ، وفي ورودها لصدورها ، ولا يحرمها الديان ، ولو في الصّفا اليابس والحجر الجامس . ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها ، ومافي الجوف من شراسيف بطنها ، ومافي الرأس من عينها وأذنها لأبصرت من خلقها عجبا ، ولقيت من وصفها تعبا ، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها ، لم يشركه في فطرته فاطر ، ولم يعنه في خلقها قادر ، ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كل شيء

---

(٦٧) مصطفى محمود: «لغز الحياة»، دار النهضة العربية، القاهرة، صفحة ٤٧ــ٤٩.

وغامض اختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء ... وهل يكون بناء من غير بان ، أو جناية من غير جان . وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين . وجعل لها السمع الخفي ، وفتح لها الفم السوي ، وجعل لها الحس القوي ، ونابين بهما تقرض ، ومنجلين بهما تقبض ، يرهبهما الزراع في زرعهم ، ولا يستطيعون ذبّها ولو أجلبوا بجمعهم ، حتى ترد الحرث في نزواتها ، وتقضي منه شهواتها . وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقة »[٦٨] .

ويتفكر الإمام ابن القيم في شأن النملة أيضا فيكتب لنا وكأنه اكتشف لغة التخاطب عند النمل . يقول :

« ... تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه ، فإنك ترى في ذلك عبرا وآيات . فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت ... شرعت في نقله ، فتراها رفقتين رفقة حاملة ، تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبا ، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك في طريقها بل هما كالخيطين ... فإذا ثقل عليها حمل الشيء ... . اجتمعت عليه جماعة من النمل ... ثم تقاسمته على باب البيت ... ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت ، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا ، فإذا أصابه ندى وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها . ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ، ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة »[٦٩] .

ثم يذكر الإمام ابن القيم في مجال حديثه عن النمل قصة طريفة لأحد العارفين الذي كان يتأمل في النمل ونشاطه ثم قام بتجربة علمية دقيقة اكتشف بها في ذلك

---

(٦٨) « نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه » : شرح الشيخ محمد عبده ، دار الهدى الوطنية ، الجزء الثاني ، صفحة ١١٦ - ١١٨ .

(٦٩) «مفتاح دار السعادة»، الجزء الأول، صفحة ٢٤٢، ٢٤٣.

العهد البعيد أن للنمل لغة للتخاطب وأسلوبا صارما لعقاب النملة التي تأتي بمعلومات خاطئة تضلل بها مجتمع النمل . يقول الإمام ابن القيم :

« ... لقد أخبر بعض العارفين ... قال : رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض ، فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل ، قال : فرفعتُ ذلك الشق من الأرض (أي أن ذلك العارف رفع شق الجرادة من الأرض بعد أن ذهبت النملة لتحضر من يساعدها من النمل على حمله) ...

فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها ، فلم يجدن شيئا فرجعن ، فوضعتهُ (أي وضع شق الجرادة مرة أخرى على الأرض) ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ، ثم جاءت بهن مرة أخرى فرفعته فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئا فتحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضوا عضوا وأنا أنظر »[٧٠] .

ثم استمع إلى الزمخشري وهو يكشف في (كشافه) بدقة العالم عن الحشرات التي لا تكاد ترى بالعين المجردة ، ويتنبأ بوجود الكائنات المجهرية ثم يختم ذلك بدعاء فيه مناجاة وطلب للمغفرة ، فيه تفكر عميق ، يقول :

« ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تحركها ، فإذا سكنت فالسكون يواريها ، ثم إذا لوحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها ، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة وتفاصيل خلقتها ويبصر بصرها ويطلع على ضميرها ، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون .. وأنشدت لبعضهم :

يامن يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليـل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

---

(٧٠) المصدر السابق، صفحة ٢٤٢، ٢٤٣.

اغفر لعبد تاب من فرطاته ماكان منه في الزمان الأول »[٧١]

ولم يكتف هؤلاء العلماء بالتدبر في المخلوقات الظاهرة بل تخطوا ذلك للتفكر في أكثر الأشياء تجريدا ، حتى تفكروا في التفكر ذاته كما أسلفنا في بعض الإشارات السابقة . ولنسجل هنا بعض ما أورده الإمام الغزالي في معرض تفكره في العقل وما أودعه الله فيه من قدرات . يقول الغزالي :

العقل « لا يرى له شخصا ، ولايسمع له حسا ، ولا يجس له مجسا ، ولا يشم له ريحا ، ولا يدرك له صورة ولا طعما ، وهو مع ذلك آمر مطاع ، وراج زيادة ، ومفكر ومشاهد للغيوب ، ومتوهم للأمور ، اتسع له ماضاق عن الأبصار ، ووسع له ماضاقت عنه الأوعية ، يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته ومافوقها ، وأرضه وماتحتها ، حتى كأنه يشاهده أبين من رأي العين .

فهو موضع الحكمة ، ومعدن العلم، كلما ازداد علما ازداد سعة وقوة ، يأمر الجوارح بالتحرك ، فلا يكاد أن يميز بين الهم بالحركة ، وبين التحرك بسرعة الطاقة ، أيهما أسبق ، وإن كان الهم قبل »[٧٢] .

ولم يكتف الإمام الغزالي بالتفكر في نعمة العقل بل تعدى ذلك إلى التفكر في نعمة سلب العقل ! ذلك بالنسبة للأطفال حديثي الولادة ، وتحدث بدقة عن النمو العقلي عند الإنسان وكأنه متخصص في علم نفس النمو . يقول :

« وانظر وفكر في سر كونه – الطفل – يولد جاهلا غير ذي عقل وفهم ، فإنه لو كان ولد عاقلا فهيما لأنكر الوجود عند خروجه إليه ، حتى يبقى حيرانا تائه العقل إذا رأى مالا يعرف ، وورد عليه مالم يره ، ولم يعهد مثله . ثم كان

---

(٧١) الزمخشري: تفسير «الكشاف»، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٤هـ، الجزء الأول، صفحة ٥٧.

(٧٢) «الحكمة في مخلوقات الله»، صفحة ٨٣.

يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا وموضوعا معصبا بالخرق ، ومسجى في المهد ، مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه . ثم كان لايوجد له من الرقة والحلاوة والمحبة في القلوب مايوجد للصغير لكثرة إعراضه بعقله ، واختياره لنفسه ، فتبين أن زيادة العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به . أفلا ترى كيف أقام الله كل شيء فيه من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب ؟ »[٧٣] .

هذه إذن أمثله لعمق تفكر المتدبرين من علمائنا وعبادنا تظهر فيها بوضوح قدرتهم على سبر أغوار الأشياء واكتشاف سنن الله في خلقه . وأن هذا البحث عن النواميس التي تنظم الكون يشترك فيها العابد المتفكر مع الباحث الحديث ، وإن اختلفت الغايات وتباينت الملل ، ذلك بأن هذا الانتظام في الكون الذي يبحث عن قوانينه ومبادئه العلم التجريبي الحديث ، والذي يسمح لنا بالتنبؤ بأحداث الكون بدقة فائقة ، هو بذاته من أهم الأدلة التي يستخدمها القرآن الكريم لإثبات حقيقة الحقائق .. إن لهذا الكون خالقا وإلها يمسكه وفي هذا يلجأ الوحي لاستثارة فطرة عقدها الله في جذر قلوب الناس ، ألا وهى البحث عن هذه السنن والنواميس التي تنسق الكون :

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأني تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم * ﴾ (الأنعام: ٩٥ــ٩٦).

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون * ﴾ (يس: ٣٨ــ٤٠) .

إن ظاهرتي انتظام السنن الكونية هذه ومن ثم التنبؤ بها في ظل هذا التناسق الدقيق ، هما في الحقيقة حجرا الزاوية للطريقة العلمية الحديثة (Scientific Method) ولا يقوم للعلم التجريبي صرح بدونهما .

---

(٧٣) المصدر السابق، صفحة ٦٨.

لذلك ، إن أخلص الباحث المسلم ، فإنه سيجد أن دوافعه للبحث والدراسة والمكافأة التي سيحصل عليها تفوق كثيرا تلك التي يجدها زميله غير المسلم . فكلاهما ربما يحصل على المكافأة المادية والشهرة ، وكلاهما قد يجد متعة في التغلب على مشكلات البحث ولذة في متابعة تخصصهما الدقيق الذي أصبح هواية مثيرة .. لكن الباحث المسلم الذي يكتشف العلاقات الدقيقة في الظواهر المادية أو البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية ويرى صنع الله وسننه من وراء ذلك ، إنما يقوم بأرقى العبادات ويصدق فيه قول الله تبارك وتعالى :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر: ٢٨).

وإن أخلص النية لله تعالى فإن نصبه وعرقه وهو يلاحظ ويتأمل ويتفكر في المختبر أو الميدان ، له فيه أجر عظيم ، بخلاف زميله الذي ينصب كنصبه ولا يرجو من الله ما يرجوه المؤمن . لذلك كان لزاما على العالم المؤمن أن يتفوق على زميله الباحث الكافر وأن يتغلب عليه في ميدان العلم . ويذكرنا هذا الصراع بالآية الكريمة التي نزلت في غزوة أحد تعقيبا على أمر الرسول ﷺ المقاتلين المؤمنين بالخروج في آثار المشركين رغم آلامهم وجراحاتهم :

﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما ﴾ (النساء: ١٠٤).

وإذا توصل من خلال أبحاثه إلى اختراع أو اكتشاف تستفيد منه البشرية فله في ذلك صدقة جارية يتفيأ أجرها مابقي على سطح الأرض منتفع بعمله .

إذن فأبحاث العالم المسلم عبادة تفكر كما أنها قد تكون كذلك استجابة لأمر رسول الله ﷺ بطلب العلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٧٤] ونتائج أبحاثه المفيدة صدقة جارية .

---

(٧٤) سنن ابن ماجة تحقيق محمد مصطفى الأعظمي حديث رقم ٢٣٧.. وقال البوصيري في الزوائد أن إسناده ضعيف (المراجع).

إن الارتباط بين مداومة الفكر في كون الله الواسع كعبادة راقية وبين تقدم العلم ، أمر يؤكده تاريخ تقدم العلم التجريبي للأمة الإسلامية . فما من شك في أن الكشوفات والاختراعات التي قدمها علماء المسلمين في كل حقل وميدان فأذهلت العالم بأسره ، قد علمت أوروبا الطريقة العلمية التي قامت على أساسها حضارتها الحديثة ... ما من شك في أن هذا التقدم كان نتيجة مباشرة لإيمانهم العميق بالله وبسبب اتباعهم لتعاليم دينهم بالنظر في السموات والأرض ، والبحث عن سنن الله ونواميسه وآياته وحكمته في مخلوقاته مع الاستجابة لأمر رسوله ﷺ بطلب العلم .

وفي ذلك تؤكد المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها المشهور (شمس العرب تسطع على الغرب) بقولها: «.. كان محمد ﷺ يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان[٧٥].

لقد أوصى محمد ﷺ كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. فهو الذي كان يحث المؤمنين على طلب العلم ويرشد أتباعه دائمًا إلى هذا فيخبرهم أن ثواب التعلم كثواب الصيام وأن ثواب تعليمه كثواب الصلاة»[٧٦].

---

(٧٥) زيغريد هونكه: «شمس العرب تسطع على الغرب»، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، صفحة ٣٦٩. وفي تعريب اسم الكتاب عدم دقة فالأصل الألماني يعني: «شمس الله تشرق على الغرب» (المراجع).

(٧٦) «والحث على العلم والتعلم في القرآن وفي السنة النبوية المطهرة ورد في نصوص كثيرة تضيق على الحصر، ويكفي أن أول آية نزل بها الروح الأمين على محمد ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق..﴾ كما أن الآيات التي وردت فيها ألفاظ العلم ومشتقاته في معرض الأمر به أو التنويه بشأنه تزيد عن (٤٨) آية وكذلك الألفاظ القريبة من لفظ العلم كالعقل والألباب والنُّهى وغيرها كل ذلك قد ورد بألفاظ كثيرة في إطار آيات تحث على العلم والتعلم وبناء العقل.. وأما السنة فما خلا كتاب من كتبها المعتبرة الموسعة من فصل أو باب خاص بالعلم يحوي العشرات من الأحاديث ويمكن الرجوع إليها في **كتاب العلم** للبخاري و**كتاب العلم** لمسلم وغيرها من كتب الصحاح، وليست هناك حاجة للاستدلال بعد ذلك بأي حديث ضعيف فضلاً عن أحاديث لا أصل لها.. ولذلك فقد استبعدنا من النص المنقول عن المستشرقة السيدة هونكه النصين الذين وردا وهما «أطلبوا العلم ولو في الصين».. و «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد» لعدم ثبوت روايتهما عن رسول الله ﷺ. (المراجع)

كما تؤكد المستشرقة هونكه بأن باكون وجاليليو وغيرهم من علماء الغرب ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي كما زعم مؤرخو الغرب ، إنما السابقون والمعلمون للعالم في هذا المضمار كانوا من المسلمين وفي مقدمتهم العبقري ابن الهيثم . وتوضح هونكة بالأدلة التاريخية أن ابن الهيثم هو المؤسس الحقيقي لعلم الفيزياء الحديث ، وتقول : إنه استطاع أن يصل إلى هذه الرتبة « **بفضل التأمل النظري والتجربة الدقيقة** » ففي الوقت الذي كان فيه العالم المتحضر لا يرى بديلا لنظرية إقليدس وبطليموس بأن العين الإنسانية ترسل أشعة حتى ترى الأشياء من حولها ، جاء ابن الهيثم وهدم هذا التصور بقوله : « ليس هنالك من أشعة تنطلق من العين لتحقق النظر ، بل إن شكل الأشياء المرئية هى التي تعكس الأشعة على العين ، فتبصرها هذه الأخيرة بواسطة عدستها »[٧٧] .

وتمضي المستشرقة هونكة قائلة : « وفق ابن الهيثم في دراسته لعلم البصريات وأحرز نجاحا باهرا حقق له تقدما فاق كل ما كان معروفا وشائعا في مجالات هذا العلم ، وأوجد بذلك حقلا علميا جديدا ... وكان ابن الهيثم أول من أجرى تجارب بواسطة نوع من (الآلة – الثقب) التي هى في الواقع صورة أولى لآلة التصوير فيما بعد ، والتي برهنت له تمدد أشعة الضوء بخط مستقيم .. واكتشف تعليلا لكثافة مختلف الطبقات كالماء والهواء واختلاف مدى انكسار الضوء في كل منها ، ثم حسب بالاستناد إلى ما سبق علو الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض وهى خمسة عشر كيلو مترا ، وهكذا يكون قد خرج بنتيجة في غاية الدقة والصحة لم يسبقه إليها أحد من قبل ... وتوصل إلى معرفة قانون تأثير العاكسات الضوئية ... واخترع أيضا أول نظارات للقراءة ... لقد كان تأثير هذا العربي النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن ، فسيطرت نظرياته على علمي الفيزياء والبصريات وعلى العلوم الأوربية حتى أيامنا هذه »[٧٨] .

---

(٧٧) سيجريد هونكه: المصدر السابق.

(٧٨) المصدر السابق .

وتمضي هذه المستشرقة المنصفة للتحدث عن إسهامات علماء التراث الإسلامي في كل الميادين كعلم الفلك والرياضيات والطب والكيمياء والهندسة وغيرها من العلوم ، وتتحدث بحماس عن الرئيس ابن سينا وكتابه القانون فتقول :

« وأية عظمة عبقرية هذه التي جمعت كل هذه المعارف النظرية والعلمية للطب بكل فروعها ونظمتها بشكل فريد في نوعه ، ودبجتها ببراعة هي البلاغة والأصالة بعينها فأصبح الكتاب تحقيقا هاما فريدا من نوعه بين كتب الطب في كل العصور ... ذلك الكتاب الذي كان له أعظم الأثر في بلاد الشرق وبلاد الغرب على حد سواء قرونا طويلة من الزمن ، بشكل لم يكن له مثيل في تاريخ الطب إطلاقا »[٧٩] .

إذن فهذه نماذج تبين تطور العلم التجريبي في العالم الإسلامي ، عندما كان التدبر في خلق السموات والأرض والتفكر في سنن الله في خلقه أساسا لتلك النهضة العلمية المؤمنة التي وجدت الرشد والسعادة حين أقامت حضارتها على أساس فطرة الله التي فطر الناس عليها . لكن المسلمين تخلفوا وجاءت أوروبا لتقيم صرح حضارة تقنية متقدمة اعتمدت التصور المادي البعيد عن هدى الله ، فأورثت أهلها ومن تبعهم من أهل الأرض شقوة وضلالا ظاهرا تؤكده الإحصاءات المذهلة للانتحار والإدمان والعصاب والذهان والإجرام . فقد كانت تنحية الإسلام كارثة ونكبة أصابت البشرية بهذا الفصام المشئوم بين المادة والروح وبين العلم والدين . ويبدو الآن واضحا من كتابات العقلاء من المفكرين الغربيين ، أنه لا صلاح ولا سعادة للبشرية إلا إذا أقامت نهضتها بجناحين متوازنين بين الجهد البشري العلمي وهدي السماء.

إن التصور المادي الجاهلي الذي يوهم الإنسان الغربي بأن التقدم العلمي «قهر للطبيعة» هو الذي أعطى الحضارة المادية الحديثة صورتها المشوهة المقطوعة الصلة بالله، لذلك فإن العالم بأسره في حاجة ماسة لربط العلم بالطمأنينة التي ينشئها

---

(٧٩) المصدر السابق ، صفحة ٢٨٩ .

التصور الإيماني، وإلى السكينة التي تفيضها الفطرة المتزنة الودود المنبثقة من منهج الله تعالى وسننه في الكون ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ (الأحزاب: ٦٢، الفتح: ٢٣).

إذا تم ذلك فسوف ترى الدنيا من جديد علماء أفذاذا ، لا يجدون فى صدورهم عداء للكون ولا قهرا للطبيعة ... علماء من أمثال ابن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمي والرازي الذين تفكروا في مخلوقات الله واستشعروا روابط الألفة والمحبة لها ، الذين يؤمنون بأن الله هو المبدع والمدبر لما في الكون من نواميس وأنه سخرها للناس ووفقهم إلى كشف مكنوناتها ومعرفة قوانينها ، فسبحوه وعبدوه وشكروه على اختياره تعالى لهم للقيام بهذا الدور .

ويعجبني في هذا المقام أن أختتم هذا الكتاب بهذه الفقرات المضيئة من ظلال الشهيد سيد قطب في معرض استرواحه مع آية: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (الفاتحة: ٥) من سورة الفاتحة ، ففيها وصف دقيق لصلة المؤمن بالكون وبطبيعة المخلوقات ، التي تختلف عن تلك الصلة الجاحدة للعلماء الغربيين الماديين . يقول الأستاذ سيد قطب :

« لقد درج الغربيون – ورثة الجاهلية الرومانية – على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم : قهر الطبيعة ... ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله ... فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم ، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبحة لله رب العالمين .. فيؤمن بأن هناك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة ، إنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعا . خلقها كلها وفق ناموس واحد ، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وأنه سخرها للإنسان ابتداء وبسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها . وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها . فالله هو الذي يسخرها له، وليس هو الذي يقهرها: ﴿وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾ (الجاثية: ١٣).

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ، ولن تقوم بينه وبينها

المخاوف ... وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها .. فيعيش معها في كون مأنوس صديق ودود ... وما أروع قول الرسول - ﷺ - وهو ينظر إلى جبل أحد :

«إنَّ أُحدًا جبلٌ يحبنا ونحبه...»[80].. ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد ﷺ من ود وألفة وتجاوب بينه وبين الطبيعة، في أضخم وأخشن مجاليها»[81].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(٨٠) سنن ابن ماجه، حديث رقم ٣١٥٢.

(٨١) «في ظلال القرآن»، الجزء الأول، صفحتي ٢٥، ٢٦.

المراجع

المراجع الأساسية :

« تفسير القرآن الكريم » لابن كثير .

« تفسير الكشاف » للزمخشري .

« في ظلال القرآن » لسيد قطب .

الأحاديث النبوية الشريفة في الصحاح والسنن..

أهم المراجع العربية :

رتبنا أهم المراجع العربية حسب الاسم الأخير للمؤلف بعد حذف التعريف بالألف واللام وكلمة « ابن » :

(١) بدري ، مالك بدري : « علم النفس من منظور إسلامي » ، مطبوعات اللقاء العالمي الرابع للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الخرطوم ، ١٩٨٧ .

(٢) بشير ، التجاني يوسف بشير : « ديوان إشراقة » ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٢ .

(٣) تيمية ، الإمام أحمد بن تيمية : « مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية » ، مطابع الرياض .

(٤) الجندي ، أنور الجندي : « الفصحى لغة القرآن » ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .

(٥) الجوزي ، الإمام ابن الجوزي : « صيد الخاطر » ، مراجعة الأستاذ علي الطنطاوي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٨ .

(٦) الجوزية ، ابن قيم الجوزية : « الفوائد » ، المطبعة المصرية ، ١٣٤٤هـ .

(٧) الجوزية، ابن قيم الجوزية: «مدارج السالكين»، تهذيب عبد المنعم العلي الصالح العزي، دولة الإمارات، وزارة الأوقاف.

(٨) الجوزية ، ابن قيم الجوزية : « مفتاح دار السعادة » ، رئاسة الإفتاء ، الرياض .

(٩) حنبل ، الإمام أحمد بن حنبل : « الزهد » ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٨٣.

(١٠) رضا ، محمد رضا : « محمدرسول الله ﷺ » ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٩ .

(١١) العقاد ، عباس محمود العقاد : « اللغة الشاعرة » ، مكتبة غريب ، القاهرة .

(١٢) عبده ، الشيخ محمد عبده : شرح « نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب » ، دار الهدى الوطنية .

(١٣) الغزالي ، الإمام أبو حامد الغزالي : « الحكمة في مخلوقات الله » ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٤ .

(١٤) الغزالي ، الإمام أبو حامد الغزالي : « إحياء علوم الدين » ، دار القلم ، بيروت .

(١٥) الغزالي ، الشيخ محمد الغزالي : « فقة السيرة » ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٩ .

(١٦) الفيومي ، محمد إبراهيم الفيومي : « الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل » ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

(١٧) القاضي ، الدكتور أحمد القاضي : « تأثير القرآن الكريم على وظائف الجسم البشري وقياسه بواسطة أجهزة المراقبة الالكترونية » : عيادات أكبر ، باناماسيتي ، فلوريدا .

(١٨) المحاسبي ، الحارث المحاسبي : « كتاب التوهم » ، دار الوعي ، حلب ، سوريا .

(١٩) محمود ، مصطفى محمود : « لغز الحياة » : دار النهضة العربية : القاهرة .

(٢٠) المودودي ، أبو الأعلى المودودي : « مبادئ الإسلام » ، دار القرآن الكريم ، دمشق، ١٩٧٧.

مراجع مترجمة إلى اللغة العربية :

(٢١) مونسما ، جون كلوفر مونسما : « الله يتجلى فى عصر العلم » ، ترجمة الدمرداش عبد الحميد سرحان ، طباعة مؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٢٢) هونكه، زيغريد هونكه : « شمس العرب تسطع على الغرب » ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ١٩٨١

"Hunke, Sigrid, Allahs Sonne Über dem Abendland: Unser Arabishes Erbe".

مراجع أجنبية :

23. Benson, H. Beyond the Relaxtion Response, Berkley, N.Y. 1985.
24. Eccles, J. C. Facing Reality, Roche Co., N.Y. 1978.
25. Encyclopeadia Britainnica, William Benton Puplishers, London, 1965.
26. Le Shan, L. How to Meditate, Bantam Books. London, 1988.
27. Uttai, W. The Psychobiology of the Mind, John Wiley, London, 1978.

اصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً - سلسلة إسلامية المعرفة

- إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- الوجيز في إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق عمل بعض مؤتمرات الفكر الإسلامي، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر.
- نحو نظام نقدي عادل، للدكتور محمد عمر شابرا، ترجمه عن الإنجليزية سيد محمد سكر، وراجعه الدكتور رفيق المصري، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- نحو علم الإنسان الإسلامي، للدكتور أكبر صلاح الدين أحمد، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، (دار البشير/ عمان الأردن) (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- منظمة المؤتمر الإسلامي، للدكتور عبدالله الأحسن، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد العزيز الفائز، الرياض، (١٤١٠هـ/١٩٩١م).
- تراثنا الفكري، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية، (منقحة ومزيدة) (١٤١٢هـ /١٩٩١م).
- مدخل إلى إسلامية المعرفة: مع مخطط لإسلامية علم التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- إصلاح الفكر الإسلامي، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر، أبحاث الندوة المشتركة بين مركز صالح عبدالله كامل للأبحاث والدراسات/ بجامعة الأزهر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- ابن تيمية وإسلامية المعرفة، للدكتور طه جابر العلواني،الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

ثانياً - سلسلة إسلامية الثقافة

- دليل مكتبة الأسرة المسلمة، خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر)، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ثالثاً - سلسلة قضايا الفكر الإسلامي

- حجية السنة، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الثالثة، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- أدب الاختلاف في الإسلام، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الخامسة (منقحة ومزيدة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- الإسلام والتنمية الاجتماعية، للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
- كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط، للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- كيف نتعامل مع القرآن: مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- حول تشكيل العقل المسلم، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الخامسة، (١٤١٣هـ /١٩٩٢م).
- المسلمون والبديل الحضاري للأستاذ حيدر الغدير، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- مشكلتان وقراءة فيهما للأستاذ طارق البشري والدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي، للأستاذ راشد الغنوشي، الطبعة الثالثة،(١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

رابعاً - سلسلة المنهجية الإسلامية

- أزمة العقل المسلم، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثالثة،(١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

- المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية: أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي،
الجزء الأول: المعرفة والمنهجية، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
الجزء الثاني: منهجية العلوم الإسلامية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
الجزء الثالث: منهجية العلوم التربوية والنفسية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- مجلد الأعمال الكاملة (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- في المنهج الإسلامي: البحث الأصلي مع المناقشات والتعقيبات، الدكتور محمد عمارة، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل للأستاذ نصر محمد عارف، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

خامسًا ـ سلسلة أبحاث علمية

- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- التفكر من المشاهدة إلى الشهود، للدكتور مالك بدري، الطبعة الثالثة، (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- العلم والإيمان: مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- فلسفة التنمية: رؤية إسلامية، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- روح الحضارة الإسلامية، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ضبطها وقدم لها عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، للدكتور عبد المجيد النجار، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

سادسًا ـ سلسلة المحاضرات

- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

سابعًا ـ سلسلة رسائل إسلامية المعرفة

- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م).
- الأسس الإسلامية للعلم، للدكتور محمد معين صديقي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م).
- صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور اسماعيل الفاروقي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول راغب النجار، (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).

ثامنًا ـ سلسلة الرسائل الجامعية

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني، (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة للأستاذ فادي إسماعيل، الطبعة الثالثة،(١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، للأستاذ محمد محمد إمزيان،

(١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- المقاصد العامة للشريعة: للدكتور يوسف العالم، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، للأستاذ نصر محمد عارف، الطبعة الثالثة،(١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- القرآن والنظر العقلي، للدكتورة فاطمة إسماعيل، الطبعة الثانية،(١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، للدكتور عبدالرحمن زيد الزنيدي، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، للدكتور راجح الكردي، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).
- الزكاة: الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، للدكتورة نعمت عبد اللطيف مشهور، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، للدكتور سليمان الخطيب،(١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض، الطبعة الثالثة (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- الأمثال في الحديث الشريف، للدكتور محمد جابر الفياض، (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
- تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، للأستاذ إبراهيم العقيلي، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

تاسعًا ـ سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات

- الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم، للأستاذ محيي الدين عطية، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- الكشاف الموضوعي لأحاديث صحيح البخاري، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- الفكر التربوي الإسلامي، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- قائمة مختارة: حول المعرفة والفكر والمنهج والثقافة والحضارة ، للأستاذ محي الدين عطية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، للدكتور نزيه حماد ، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة)(١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- دليل الباحثين إلى التربية الإسلامية في الأردن، للدكتور عبد الرحمن صالح عبدالله، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- دليل مستخلصات الرسائل الجامعية في التربية الإسلامية بالجامعات المصرية والسعودية، للدكتور عبد الرحمن النقيب، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- الدليل التصنيفي: لموسوعة الحديث النبوي الشريف ورجاله، إشراف الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، (١٤١٤هـ/١٩٩٤).

عاشرًا ـ سلسلة تيسير التراث

- كتاب العلم، للإمام النسائي، دراسة وتحقيق الدكتور فاروق حمادة، الطبعة الثانية ، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

حادي عشر ـ سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير

- هكذا ظهر جيل صلاح الدين.. وهكذا عادت القدس، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) ، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

ثاني عشر ـ سلسة المفاهيم والمصطلحات

- الحضارة ـ الثقافة ـ المدنية «دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم» للأستاذ نصر محمد عارف ، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ص.ب. 55195 الرياض 11534

تليفون: 0818-465-1 (966) فاكس: 3489-463-1 (966)

المملكة الأردنية الهاشمية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص.ب. 9489 ـ عمان

تليفون: 992-639 (6-962) فاكس: 420-611 (6-962)

لبنان: المكتب العربي المتحد ص.ب. 135788 بيروت.

تليفون: 779-807 (1-961) 184-860 (1-961) فاكس: 1491-478 (212) C/O

المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع، 4 زنقة المامونية الرباط

تليفون: 276-723 (7-212) فاكس: 055-200 (7-212)

مصر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 26 ب شارع الجزيرة الوسطى الزمالك ـ القاهرة

تليفون: 9520-340 (2-20) فاكس: 9520-340 (2-20)

الامارات العربية المتحدة: مكتبة القراءة للجميع ص.ب. 11032 دبي (سوق الحرية المركزي الجديد)

تليفون: 901-663 (4-971) فاكس: 084-690 (4-971)

شمال أمريكا

ـ أمانة للنشر
AMANA PUBLICATIONS
10710 Tucker Street, Suite B, Beltsville, MD 20705-2223 USA
Tel: (301) 595-5777 • Fax: (301) 595-5888

ـ السعداوي/ المكتب العربي المتحد
SADAWI PUBLICATIONS/ UNITED ARAB BUREAU
P.O. Box 4059, Aelxandria, VA 22303 USA. Tel: (703) 329-6333 • Fax: (703) 329-8052

ـ خدمات المكتب الإسلامي
ISLAMIC BOOK SERVICE
2622 East Main Street Plainfield, IN 46168 USA
Tel: (317) 839-8150 • Fax: (317) 839-2511

بريطانيا:

ـ المؤسسة الإسلامية
THE ISLAMIC FOUNDATION
Markfield Dawah Center, Ratby Lane, Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944 • Fax: (44-530) 244-946

ـ خدمات الإعلام الإسلامي
MUSLIM INFORMATION CENTER
233 Seven Sisters Rd. London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170 • Fax: (272-3214

فرنسا: مكتبة السلام
LIBRAIRE ESSALAM
135 Bd. de Menilmontant. 75011 Paris Tel: (33-1) 43 38 19 56 • Fax: (33-1) 43 57 44 31

بلجيكا: سيكومبكس
SECOMPEX. Bd. Mourice Lemonnier; 152
1000 Bruxelles Tel: (32-2) 512-4473 • Fax: (32-2) 512-8710

هولندا: رشاد للتصدير
RACHAD EXPORT, Le Van Swinden Str. 108 11
1093 Ck Amsterdam Tel: (31-20) 693-3735 • Fax: (31-20) 693-8827

الهند:
GENUINE PUBLICATIONS & MEDIA (Pvt.) Ltd.
P.O BoX 9725 Jamia Nager, New Delhi 100025 INDIA
Tel: (91-11) 630-989 • Fax: (91-11) 684-1104

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت في الولايات المتحدة في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيَّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلميَّة والفكريَّة المتخصّصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر النتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلميَّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد مكاتب وفروع في عدد من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقيات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية والإسلامية والغربيّة وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922

هذا الكتاب

دراسة مبسطة للتفكر من منظور إسلامي، حاول فيه المؤلف توضيح قيمة التفكر العبادية، ومناقشته من وجهة نظر علم النفس الحديث، مع التركيز على موضوع الدراسات المعرفية والتأمل الارتقائي.

وتناول أهم الإسهامات النفسية الحديثة التي تؤكد قيمة الفكرة والتأمل في تكوين الأسس المعرفية والعاطفية للإنسان، وتوجيه سلوكه ودوافعه، وصياغة عاداته، وعلاج اضطراباته، وإثراء حياته النفسية والروحية.

وتحدث عن أهم الأساليب القرآنية في الحض على التفكر في خلق السموات والأرض، وعن طبيعة التفكر كعبادة حرة طليقة لا يحدها - غير التفكر في ذات الله عز وجل - عائق من زمان ولا مكان.

كما ناقش طبيعة التفكر ومراحله من وجهة نظر علماء المسلمين أمثال الغزالي وابن القيم، مقارنًا ذلك بما توصل إليه علم النفس الحديث.

وتوصل إلى أهم العوامل البيئية والجِبِلِّية التي تجعل بعض المؤمنين أشد عمقًا في تفكرهم، وأكثر اهتمامًا بعبادة التفكر من غيرهم.

وأخيرًا، فالكتاب بفصوله الثمانية يعتبر نموذجًا لما يمكن أن تقدمه العلوم الإنسانية من خدمة للإيمان وللقيم الروحية العليا، وبالتالي للإنسان، إذا تناولها بالبحث والدرس عقل مسلم متخصص جعل القرآن والسنة نبراسه.